الحياة الزوجية

تأليف
محمّد رشيد رضا

الحياة الزوجية


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الروم: ٢١) .

(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) (البقرة:٢٨) .

الأزواج تلِدُ الأفراد، ومن الأفراد والأزواج تتألف الأمم والشعوب، يجتمع فردان فيُكوِّنَان زوجًا، ولفظُ الزوج يُطلق على كلِّ واحد منهما؛ لأن الزوجية تحقَّقَت به للآخر كما تحققت بالآخر له؛ فالزوجان كوَّنَا حقيقة الزوجية؛ فهما حقيقة واحدة ظهرت في صورتين، وروح واحدة انبثت في جسدين، وبناء واحد أقيم بركنين، بل هما حقيقة الإنسانية الكاملة، وكل واحد منهما جزء لها، لو وُجِد وحدَه لما وجدت الإنسانية، ولو هدم بناء وحدتهما بعد وجوده لما بقيت لها بقية (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) (النساء: ١) .

هؤلاء الرجال والنساء الكثيرون هم الأمة؛ **فالأمة أثرُ الزوجية، وحياتها العزيزة تابعة للحياة الزوجية؛** فإذا كانت البيوت التي يعمرها الأزواج ويَبُثُّون منها الأفراد في عيشة راضية وحياة طيبة خرج منها أولئك الأفراد أحياء،

وكونوا بيوتًا يكون مجموعها بلادًا ومدائن وقرىٰ ومزارع يُطلق علىٰ عُمَّارِها لفظُ (الأمة) والمُكوَّنُ من الأجزاء الحيَّة يكون حيًّا بحياتها، **فالحياة الزوجيَّةُ الطيِّبة هي الأصل في حياة الأمة**، والنظر في الأصل مقدم علىٰ النظر في الفرع.

[إرشاد الفطرة للحياة الزوجية]:

الفطرةُ البشريَّة هاديةٌ إلىٰ الزوجية بكمال معناها، وإلىٰ أثَرِها في نفس الزوجين؛ وفي آلِهما، وفيما يُرزَقان من الولد، فهي تسوقُ كُلَّ رجلٍ إلىٰ طلب الازدواج بامرأة، وكُلَّ امرأة إلىٰ قَبول الاتحاد مع رجل، وهي التي تربط قلبيهما وتمزج نفسيهما وتُوحِّد مصلحتيهما، وتجعل الصلة بينهما أقوىٰ من كل صلة بين اثنين في هذا العالم، حتىٰ يسكُن كُلٌّ منهما إلىٰ الآخر عند كل اضْطِراب، ويأنَسَ به ما لا يأنسُ بالأهل والأصحاب، وهي التي تنقل المودَّة منهما إلىٰ أهلِ كل منهما حتىٰ تكون كل عشيرة عونًا للأخرىٰ علىٰ دفع مضار الحياة، وجلب منافعها، وهي التي تربِّي عاطفةَ الرَّحْمة فيها بالتعاون علىٰ تربية الولد فتنمو هذه الرَّحْمة فيهما حتىٰ ينتفع بها من يعجز منهما عن مساعدة الآخر في الشؤون المشتركة لضعف أو عجز؛ فيرىٰ عاطفة الرَّحْمة قد نابت عن عاطفة سكون النفس إلىٰ الإنتاج، وعن الإحساس بالحاجة إلىٰ التعاون.

[السبب في عُدُول الإنسان عن إرشاد الفطرة]:

لكن الإنسان قد أُعطِي من القوىٰ ما يمكنه من التصرف في الميل الفطري، فيحوله عن جادَّته، ويسلك به المجاهل والشعاب؛ فيضل ويردىٰ؛

لذلك بغى الرجال على النساء في عصور لا يعرف التاريخ أولها، واعتزوا عليهن بالقوة حتى ألزموهن بالكيد والمكر، والكذب والخلابة، والتصنُّع والدِّهان؛ فأشقُوهُنَّ وشقَوا معهُنَّ في أنفسهم وفي أولادهم؛ فساءت حالة البيوت؛ وساءت بها حالة الأمم والشعوب؛ فجاء الدين مُرشدًا إلى الرجوع بالفطرة إلى جادتها، بل العناية بتكميلها وترقيتها، ثم بغى الناس في الدين، كما بغوا في الفطرة حتى عميت علينا تعاليم أكثر الأديان، وحسبُنَا ما حفظناه من هداية القرآن.

يندفعُ الرجل لهَضمِ حقوق المرأة بدافع الإحساس والشعور بقوته عليها وحاجتها إليه؛ ودافع الاعتقاد بأنه سيدها وهي خادمته المسخرة، أو متاعه المملوك، فأما الشعور بالقوة فهو آلة البغي في البشر، ولولا أن للرجل شعورًا آخر بحاجته إلى المرأة، وميله إليها يعارض ذلك الشعور الدافع إلى البغي عليها فيكسر من سورته = لكان البلاء أعظم والشقاء أشد.

وكان يجبُ عليه أن يجعلَ عقلَه مؤدِّبًا للشعور الدافع إلى الشر، ومؤيِّدًا للشعور السائق إلى الحسنى، لولا ما يعرض للعقل من الخطأ في الاعتقاد فيخرج به عن الصواب؛ إذ يعتقد أن له الحق في أن يعامل المرأة بما يسوقه إليه طبعه الفاسد، ورأيه الباطل، **ولا سعادة في الزوجيَّةِ ولا للأمة إلا إذا صح اعتقادُ الرجال؛ فعلموا أن المرأة هي شطر الحقيقة الإنسانية والرجل هو الشطر**

الآخر، وأنه يجب أن يكونَ كلٌّ منهما مُتمِّمًا لعمل الآخر في الوجود فيما يشتركان فيه، وعَوْنًا له على ما تختلف فيه وظيفتهما مع ملاحظة جهةِ الوحدة، كما تساعد إحدىٰ اليدين أختها، وتتم كل من الرجلين سعي صاحبتها، وكما يؤدي العقل وظيفة الفكر، والقلب وظيفة الشعور والوجد، وكما تسمع الأذن، وتبصر العين، والغرض من عمل كل عضو واحد وهو مصلحة الشخص؛ فإذا قام بناء الزوجية علىٰ هذا الأساس كان بناء الأمة الذي يتألف من الأزواج، والأفراد التي ينسلها الأزواج لتكون أزواجًا في البيوت متفرقة، وأمة في البيوت مجتمعة = بناءً محكمًا رصينًا.

[ضرورة معالجة العدول عن إرشاد الفطرة والدين بتصحيح الشعور القلبي والاعتقاد العقلي، وكتابة هذه الرسالة من الباب الثاني] :

إذا فسَد الشعور القلبي، والاعتقاد العقلي في الأمة؛ فنقضت ما أبرمته الفطرة من ميثاق الزوجية حتىٰ صارت المعاملة بين الأزواج كالمعاملة بين التجار والصُّنَّاع والأجراء؛ يؤدِّي كلٌّ واحدٍ من حقوق الآخر ما يمكنه من استخدامه مع ظلم القوي للضعيف، ومكر الضعيف وخداعه للقوي = فالواجبُ المُبادرة إلىٰ معالجة هذا المرض، فإن انتشاره في الأمة وباءٌ مُجتاح، وخسرانٌ لا يرجىٰ معه نجاح؛ لأن **من يضيع حقوق أشد الناس صلة به، بل من كان متمِّمًا لمعناه وحقيقته ومسوقًا هو إلى حبه بمقتضى غريزته = فكيف يرجى أن يقوم بحقوق من لا يتصل به إلا بصلة بعيدة هي فرع تلك الصلة**

القريبة ؟ وإذا لم يقم كل فرد من الأفراد بما عليه من الحقوق الخاصة والعامة فكيف تتكون الأمة وتتحد على دفع الأذى، وتتعاون على المصالح حتى تبلغ المدى ؟

معالجة النفوس أعسر من معالجة الأبدان، ومعرفتها أغمض وأدق، والإحساس بالأمراض الروحية أخفى من الإحساس بالأمراض الجسدية، لذلك كانت الأمراض الروحية في الأفراد والجمعيات أكثر من الأمراض البدنية.

لا يتمُّ علاجُ النفس المريضة إلا بإصلاح العقل والقلب معًا، وذلك بإقناع العقل بما تقدم الإلماع إليه من معنى الزوجيَّةِ، ومكانةِ كلٍّ واحدٍ من الزوجين من الآخر وبتربية شعور القلب ووجدانه تربية صحيحة مبنية على احترام ذلك المعنى وإكباره، ليكون الوجدان مُؤيِّدًا للفكرِ والاعتقاد بأن تحقق معنى الزوجية، وقيام كل من الزوجين بحقوقها من أركان السعادة التي لا تبنى إلا عليها.

فأمَّا تربيةُ الكبير على ذلك فهي مُتعذِّرَة أو متعسرة، وأما إقناعه بذلك فهو سهلٌ على العارف به ولكنَّ فائدةَ العلم بغير إذعان النفس وشعور القلب قليلة الجدوى.

إذا كان الناشئ علىٰ فساد الأخلاق وسوء الفعال لا يستطيع أن يقوِّم من نفسه عوجها فيعامل زوجه بالحسنىٰ التي هي أثرُ سكون النفس وحُبِّ القلب، فهذا لا يدل علىٰ أن العلم بمعنىٰ الزوجية والاقتناع بحقوقها لا يكون نافعًا بدون التربية علىٰ هذا العلم حتىٰ يصير وجدانًا وشعورًا؛ فإن العلم الصحيح ينازل الوجدان الفاسد، ويبعثُ صاحبَه علىٰ مقاومته بالتكلف حتىٰ يزول؛ إذا لم يكن راسخًا وإلا ضعف أثره، وحسنت الحال في الجملة؛ ولذلك ترىٰ حياة الزوجين العالمين الفاسدي الأخلاق أهنأ من حياة الجاهلين الفاسدين أو أقل شقاء ونغصًا، ذلك بأن العالمين يتحبب كل منهما إلىٰ الآخر حتىٰ يصير التكلف حبًّا، أو تكون له أكثر ثمرات الحب وكذلك يتَّقِي كلٌّ منهما ما يسيء قرينه بمقاومة طبعِه ومغالبة ميله؛ فتكون لهما صورةُ الحياة الطيبة وكثيرٌ من معناها، ثم إن الزوجين العارفين بمكان الزوجية ووجوب مساواة الزوجين فيما عدا رياسة المنزل وزعامة العشيرة يربيان من يرزقان من الولد علىٰ ذلك عسىٰ أن يتم لهما في ولدهما ما فاتهما من السعادة في نفسهما.

ولولا أنَّ العلمَ يكونُ وسيلةً للتربية النفسية التي يتَّحد بها القلب مع العقل لما رأيت مُصلحًا يظهر في الأمة الفاسدة الأخلاق يدعوها إلىٰ التربية كما ترىٰ في أمتنا الآن؛ إذن نحن في حاجة إلىٰ العلم بمعنىٰ الزوجية وحقوقها والشروط التي تتم بها حقيقتها.

الركنُ الأوَّل من أركانِ الحياة الزوجية : سكُون كُلٍّ من الزَّوجَين إلى الآخر

حسبُنَا في بيان معنى الزوجية وسرِّها تلك الآية التي صدَّرنَا بها هذا المقال، وفي حقوقها بعضُ الآية التي تليها.

تفيد الآية أن أركان هذه الحياة ثلاثة :

أولها : سكون كل من الزوجين إلى الآخر؛ فإن المراد بالأنفس في الآية الجنس، والمراد بالزوج ما يعمُّ الرجال والنساء، فالحكمة الأولى للزوجية أن يكون لكلٍّ من الزوجين وجود آخر من جنسه يسكن إليه من اضطرابه.

ومَثارات الاضطراب في هذه الحياة كثيرة، وأنواع المتاعب فيها غير معدودة، وما اخترع الناس أنواع الملاهي واللعب إلا ليقوِّمُوها، على أنَّ اللَّعِب شأنُ الأطفال لا شأن الرجال، وأنَّ سُكونَ الزوج إلى زوجه وأُنسَ الإنسان بشقيق نفسه وروحه وشريكه في جميع شؤون حياته = لمِّا يذهب بكل اضطراب ويزيل كل وحشة؛ إذا تحققت الزوجية بكمال معناها.

[العلَّةُ الطبيعية لسكون كل من الزوجين للآخر :]

يقول المفسرون: إن العلة في أُنسِ كلٍّ من الزوجين بالآخر الجِنسيَّة، كما يعطيه ظاهر اللفظ في قوله: (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) (الأعراف: ١٨٩) وهو صحيحٌ عقلًا وطبعًا؛ فقد خلَقَ الله في كُلٍّ من الزوجين الذكر والأنثىٰ جاذبًا يجذبه إلىٰ الأخر؛ لأجل أن يتَّحِد به، وقد يكون هذا الجذب والانجذاب في بعض أطوار العمر مُبهَمًا؛ لا يتصور صاحبه الغاية الفطرية من ذلك الاتحاد؛ وهو أن ينشأ عنه وحدةٌ أو وحداتٌ أخرىٰ من الجنس، بل ولا مقدمة هذه الغاية أيضًا، ولكن هذا التعليل لا يصدق علىٰ إطلاقه في الوجود الخارجي، كما يعقل في الوجود الذهني؛ لا مع كل زوجين ولا مع أكثر الأزواج - كما قيل - فإن الباحثين في حياة البيوت يقولون: إنه قلما يوجد زوجان سعيدان كلٌّ واحدٍ منهما مغبوطٌ بالآخر، راضٍ به، يسكنُ إليه من اضطرابه، ويصفيه حُبَّه ووُدَّه ظاهرًا وباطنًا، علىٰ أن هذا هو غاية الكمال في سعادة الحياة الزوجية، وأنىٰ للأكثرين أو الأقلين بالكمال في هذه الحياة.

والصوابُ أن أكثرَ الأزواج في البشر يسكُن بعضهم إلىٰ بعض، ويودُّه مهما كانت حالهم من فساد الفطرة، وسوء الأخلاق، والجهل بقيمة الطمأنينة والسكينة في الحياة، ولكن لهؤلاء الأكثرين مُنغِّصَات في حياتهم، هذه لها أسباب تختلف باختلاف البلاد والأمم، وباختلاف الأفراد في التربية والعلم،

والأخلاق والأفكار، واستقصاء هذا لا يكون إلا في كتاب مستقل؛ يكون فيه باب للأزواج في القبائل البدوية، وفي البلاد التي تقرب حال أهلها من حال البدو في السذاجة وقلة الحاجة، وتقارب النساء والرجال في الأدب والمعرفة، وباب لأهل الحضارة العالية؛ التي عم التعليم والتربية جميع أفرادها أو أكثرهم. وباب أوسع للبلاد المذبذبة التي بعدت عن سذاجة الفطرة، ولم تصل إلىٰ شيء من كمال العلم والصنعة، كالبلاد الشرقية التي طاف بها طائف المدنية الغربية؛ فزلزل أخلاقها وعاداتها، وعقائدها وأفكارها الأولىٰ عن سعادة الحياة الزوجية وما يتبعها، فإنك تجد أكثر الذين أصابهم هذا الزلزال في حيرة من أمر الزواج قبل الإقدام عليه وبعد الوقوع فيه، **ونحن إلى الدخول في هذه الباب أحوج؛ لأننا في بلاد الزلزال عائشون، ولأهله في الأكثر مخاطبون وكاتبون،** ونكتفي منها في هذا المقال ببيان طرق اختيار الزوج وما يكون من ورائه.

[البحث في أسس اختيار الزوجة بوصفه وسيلة لتحقيق الركن الأول من أركان الحياة الزوجية وهو السكون بين الزوجين :]

جرىٰ العُرْف بأن يكونَ الرجل هو الذي يتخيَّرُ المرأة ويطلُبُها، والأصل في الاختيار أن يكون للمصلحة، وهي لا تتحقق إلا بصحة الجسم والتناسب مع الرجل في الأخلاق والعادات والميل والرغبة والاتِّحاد أو التقارب في الصنف والطبقة؛ لأن النفس لا تسكن وترتاح لمن يباينها في صفاتها ويخالفها في عاداتها.

ولكن الناس قلَّما يجرون علىٰ المصلحة الحقيقية في أعمالهم الاختيارية؛ لأن اللذة عندهم ليس لها حدود طبيعيَّةٌ يقفون عندها، وإنما تعرف الحدود بالشرع والعقل، والشرع يؤخذ بالتعلم والاقتداء، والعقل ينمو بالتجارب والاختبار؛ لذلك تختلف الحدود في نظر الأفراد وترىٰ بعض الناس يبني اختياره علىٰ الهوىٰ والميل إلىٰ الجمال، وبعضهم يُحكِّم المصلحة ويجعل مناطها الجاه والمال، **فالأصل في اختيار المرأة عند الأُمم الجاهلةِ الفاسدةِ الأخلاق، هو الحسن والجمال اتباعًا لهوى النفس المستلذ، أو الثروة والجاه إيثارًا للمصلحة الموهومة.**

[اختيار المراة لحسنها وجمالها :]

أكثر ما يقع التخيُّر بالحسن أو الاستحسان من طائفتين:

أولاهما: الشُّبَّان الأغرار الذين يتوهَّمُون أن عاطفةَ الهوىٰ لمن رأىٰ أحدهم فاستحسن وأحب تدُوم، فإذا هو اقترن بمن أحبَّ كان له نشوة سرورٍ دائمة؛ فيعيش مغبوطًا ناعمَ البال قرير العين يرىٰ الملك ملكه، والزمان غلامه، وهيهات ما يتوهم، ولكن أنىٰ له أن يفهم ذلك وهو محكوم بشعوره ووجدانه، تعبث به الخواطر وتقوده الأماني التي يوليها عليه ذلك الشعور، ثم أنىٰ له أن يعرف سيرة الناس الذين سبقوه في تحكيم الهوىٰ واتباع لمحات العيون، وطاعة

هواجس النفوس؛ فتزوَّجُوا بمن استحسنوا ولم يلبث أن تحوَّل الاستحسانُ استقباحًا، والحبُّ العارضُ مقتًا وبغضًا.

الحُسن والجمال من الأعراض التي يسرع إليها الزوال، ثم إن سلطَانَهُما على القلب الواحد لا يدُوم، أو لا يطول إلا إذا صار عِشْقًا خياليًّا؛ يخطف القلب من عالم الحسن ويزجُّ به في عالم الخيال، وهذا الضرب من العشق لا يكون مع ملك الاستمتاع بالمحبوب.

على أن هوى الأغرار لا يتَّقِد بالحسن الرائع، والجمال البارع، قُلْ لهؤلاء الأغرار ليست تلك العاطفيَّةُ الرقيقة التي وجدتم عند إرسال الطرف إلى الوجه الذي استملحتم، هي أثرًا طبيعيًّا لشيء ثابت في ذلك الوجه؛ فتقولوا: إن العلة تلازم المعلول، بل هي شيءٌ كامنٌ في النفس تُحرِّكه وتهزُّه في أحد الصنفين رؤية الآخر في صورة تعجُّب، وقد يضعف ذلك الشيء في وقت ما، وقد تملُّ الصورة المحركة له، أو تعرض للعين صورةٌ أخرى فتبطل حركتها وتنسخ آيتها، **فالاعتماد في هناء العيش وسعادة الزوجية على الاستملاح والاستحسان الذي تحدثه النظرة العجلى اعتمادٌ على ركن غير شديد.**

والطائفة الثانية: هي طائفة المترفين الذين لا همَّ لهم إلا الاستمتاع والتنقل في الشهوات واللذات، وهم أعرَقُ في البهيمية من الطائفة الأولى؛ لأنَّ الشابَّ الغِرَّ يكتفي في اختيار الزوج بملحة طرفه، وخفقة قلبه، دون الوقوف

علىٰ أخلاق من أعجب بصورتها، وخفَقَ قلبُه عند رؤيتها، ولا علىٰ سيرتها وسيرة أهلها وعشيرتها لتعرف المنبت والنبات.

قد يتَّفِق أن تكُون الفتاةُ التي اختارها مُشاكلِةً له في طبعه قريبةً منه في أخلاقِه وعادته؛ فيعيش معها عيشة راضية، وتسكنُ نفس كل منهما إلىٰ الآخر ويقيمان بإقامة هذا الركن الأول ركني الزوجية الآخرين – المودة و الرَّحْمة – بحسب حالهما وطبقتهما في الأمة.

وأما المترفون الذوَّاقُون من الأُمَرَاء وأهل الثراء، ومن تسري إليهم سُمُومهم ممن دونهم، فهم أشقىٰ الناس في بيوتهم، وما أشقىٰ نساءهم بهم؛ ذلك أنَّ أحدهم لا يلبث أن يملَّ من تزوَّج بها لحسنها، أو يستهويه حُسنٌ آخر؛ فيهوي إليه وهكذا يتبع مواقعَ الحسن الجديد؛ ويُوغِل في المحرمات فلا يكونُ زوجًا حقيقيًّا للأولىٰ ولا لغيرها، وإنما هو شقيٌّ بشهوته ومُشقٍ لمن يتصل به؛ فإن المرأة عنده إما أن تفسدَ كفساده؛ فتكون من الذوَّاقات؛ وما أسهل ذلك علىٰ ذات الجمال البارع التي قلَّما يسلَمُ مثلُها مع تطلُّع الفساق المُترفين إليها وافتتانها هي بنفسها، وإما أن تعيشَ في نكَدٍ، وتظلَّ في كَبَدٍ، وكلا الأمرين شقاء للبيوت وشقاء للأمة.

فهذا إجمالٌ يكشِفُ للمتفكِّر عن وجهِ الخطأ في جعل استحسان الصورة والإعجاب بالجسم أصلًا لتخيُّر المرأة زوجًا.

وأما جعلُه أصلًا لتخير المرأة للرجل، فذاك مما لا حاجة إلى بيان فساده وخطأ الذاهب إليه.

يقول قائلون: إن النظرَ رسُولُ القلب، وإن الاستحسانَ علَّةُ الحب، والحبُّ هو علة ذلِك السكون الذي هو ركنُ السعادة وسرُّ حقيقة الزوجية ، فإن لم يكن عينُه فهو علَّةٌ له أو أثرٌ من آثاره، فما بالك تطلق القول في تخطئة من يحكم استحسان الصورة، وميل القلب في الاختيار؛ كأنك تؤيد عادة مسلمي المدن الذين يتزوجون غالبًا على السماع، غافلًا عما يتبع هذه العادةَ من التنافر بين الزوجين لأول وهلة، وما يَرزَآنِ به من الخصام والجفوة.

ونقول: إننا قد بينَّا أن استحسان الصورة، وميل القلب إلى ما يرضي العين مما لا بقاء له ولا ثبات لما يبنى عليه، وإنما البقاء والثبات للحب الذي علته تعارف الأرواح، ومشاكلة الطباع، ولا ننكر مع هذا أن حسن الصورة، وجمال الخلقة له أثر عظيم في نفوس عُشَّاق المعاني؛ رُبَّما يفوقُ أثرُه في نفوس عُشَّاق الصور، ولكنَّهُ عندهم في الدرجة الثانية، بل يقرُب في ذوقهم من المحسنات العارضة كالثياب والحلي؛ فإنَّ سليمَ الطبع لا تسكُن نفسه إلى دوام معاشرة رثِّ الثياب وسِخِها، ويأنَفُ طبعُه من الطعام الطيِّب في الإناء الخبيث.

وإن من الناس من تشمئزُّ نفسُه وتنفرُ من بعض العيوب الخَلْقِيَّة؛ فإذا هي فاجأته في وجه من اختير له زوجًا يلابسه ويمازجه حتى يتَّحد معه أتمَّ

اتِّحاد؛ يوشك أن تنكمش نفسُه انكماشًا يتعذَّرُ معه الالتحام والالتئام، لذلك كان من السُّنَّة في الإسلام أن لا يتزوَّجَ المرءُ إلا بعد الرؤية، وما جرىٰ عليه المسلمون في أكثر المدن أو جميعها مخالفٌ للفطرة والشريعة جميعًا، ولكن حكم العادات أقوىٰ سلطانًا علىٰ نفوس الجماهير من كل حكم يخالفه.

علىٰ أن من يطلُب الازدواج لإقامة سُنَّة الفطرة، لا لمجرَّدِ إرضاء الشهوة، ولا لأجلِ التنقُّل في معاهد اللذة، فقلَّما يخون الوصف رغبتَه فيما يجب من حسن الصورة وجمال الخلقة، ولعلنا لو أحصينا عدد الأزواج الذين مقَتُوا أزواجهم استقباحًا لصُوَرِهن لما وجدنا فرقًا كبيرًا بين من تزوَّج منهم عن رؤية ومن تزوج عن سماع فإن للرؤية نظرًا خادعًا ليس معه للرَّوِيَّة مجال.

والسماع يُتثبَّت فيه ويُتروَّىٰ حتىٰ يُغني عن النظر في كثير من الأحوال.

[الجواب عن دعوى ضرورة المخالطة بين الرجل والمرأة قبل الزواج لمعرفة الأخلاق والطباع]:

ويقولون في انتقادِ ما عليه أكثرُ مسلمي المدن من التشدُّد في الحجاب: إن الحاجة إلىٰ رؤية الرجل من يريد الاقتران بها للوقوف علىٰ طباعها وأخلاقها وعادتها = أشد منها لمعرفة حُسنِها وجمالِها، بل لا بُدَّ لمعرفة الأخلاق والطباع من المعاشرة زمنًا طويلا!

ونقول: إن هذا هو الذي يظهرُ بادي الرأي، وأما ما يظهر بعد التدقيق والتمحيص فهو أنه يتعسَّر أو يتعذَّر علىٰ الشابِّ أن يعرفَ حقيقة أخلاق

الشابَّة وطباعها ورغائبها من المعاشرة بقصد الخطبة؛ فإن ما يتنازع الفتاة من ضروب الشعور والوجدان إذا كانت بمرأىٰ من الفتىٰ ومسمع يخرج بها عن حال الاعتدال الطبيعي الذي طبعت عليه، فلا يكون الحكم عليها صحيحًا؛ لأن حجابًا طبيعيًّا أُسدل علىٰ أخلاقها وسجاياها، ثم إن من وراء هذا الحجاب أو من أمامه حجابًا آخر صناعيًّا، وهو ما يكون من التكلف والتصنع؛ لتكون أمام الفتىٰ بالمظهر الذي تظن أنه يرضيه ويجذب قلبه.

فالعُمْدة إذن في معرفة الآداب والأخلاق هي الوقوف علىٰ حال المنبت والعشيرة، وخبر الصادق الذي يحسن النقد ويميز بين ما يُرغَب فيه وما يُرغَب عنه.

وقد يَسهُل علىٰ الخُلَطَاء والجيران من العشائر أن يعرفَ فتيانهم أخلاق فتياتهم بالاختبار الصحيح؛ إذا لم يكن هناك مُقدِّمات، ولا وسائل تشعر برغبة المختبر في تزوج من يلاحظ أحوالها ويتنقد أعمالها، وقلما يكون هذا في المدن إلا بين الأقربين.

وحدَّثني السيد عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله أن أهل الآستانة إذا رضوا بالخاطب دعوه إلىٰ دارهم، وجمعُوا بينه وبين بنتهم في مجلسهم فيراها وتراه ويسمع كلٌّ حديثَ الآخر وتسأله عن آثاره الأدبية والعلمية ثم يكون العقد بعد ذلك.

جملة القول: إن الذين يعتمدون على مجرد استحسان الصور في تخيُّر الأزواج ضالُّون، لا يُرجى لهم أن يُكوِّنوا بيوتًا - عائلات - تكونُ أعضاء حية عاملة لأمَّةٍ عزيزة.

وسيأتي بيان حال من يبني اختياره على طلب المال والثروة، ثم من يبني اختياره على ما يجب أن يبنى عليه الاختيار، وقد ذُكِر بعضُه في هذه المقالة تمهيدًا واستطرادًا .

اختيار المرأة لمالها :

إن من يختار المرأة زوجًا له لحسنها وجمالها، يختارُها لصفاتٍ فيها، وإنما كان مخطئًا لأنه عني بصفات الجسد التي يسرُع إليها التغيير، ولا تكفي للقيام بحقوق الزوجية، وما تُرَاد له الزَّوجة، ولم يحفَل بصفات النَّفسِ الثابتة التي هي مناطُ السعادة والهناء، أو مجلبةُ التعاسة والشقاء، وأما من يختار المرأة لأنَّها ذاتُ مال وثروة؛ فهو إنما يختارها لأمر خارجٍ عن ذاتها؛ فهي غير مطلوبةٍ له، ولا مرغوبٍ له فيها؛ وإنما مطلوبُه المال يتمتع به، وهي عنده وسيلةٌ له؛ فإذا نزلت بالمال جائحةٌ أو اغتالته غائلةٌ؛ صارت المرأة عنده كالشيء اللقا لا قيمةَ لها؛ ولا حاجةَ إليها، وما عساها تصادِفُه مع وجود المال من الحَظْوَة والكرامة؛ فأجدرُ به أن يكونَ مُصانعةً ورياء، وحسبُ الزوجين شقاءً أن يرائي بعضهما بعضًا،



ويدَّهِن أحدهما للآخر، وهذا شأن من يطلب المال عفوًا بغير عمل لا يكون إلا مُرائيًا مُداهنًا.

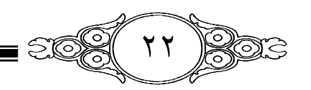
يعيشُ المنافق مع الناس الذين يدهن لهم في اضطرابٍ دائم؛ لأنه يشعُر في نفسه بأنه يعيش مع خُصماء وأعداء؛ فإذا لم يكن له من يُخلِصُ هو لهم ويخلِصُون له كان شقاؤه دائمًا، واضطرابُه مستمرًّا، ومن أحق بهذا الإخلاص من الزوجين اللذين خُلقا ليسكُن كل منهما إلى الآخر؛ ويلابِسَه في جميع شؤونه لباسًا يتَّحد به معه، حتى يكونا كشخص واحد؟! أرأيت إذا انعكس الأمر فكانت الزوجية التي هي علة السكون والارتياح ومبعث الحب والإخلاص وسبب المودة و الرَّحْمة = علَّةً للاضطراب والانكماش، ومثارًا للرياء والدهان؟ أرأيت إذا صارت الغاية التي يُقصد لأجلها الكسب، وسيلةً للرزق وطريقةً للربح، يلجأُ إليها الكسالى المترفون، ويرغبُ فيها أهل الشره الطامعون؟ أرأيت إذا وصل الناس إلى الحدِّ في فساد الفطرة والخروج عن محيط الشرعة؟! أيكون المال الذي يعبدون كافيًا لتحقيق سعادتهم، وحفظ شرف بيوتهم وأمتهم؟! كلا، إن هؤلاء لا حظَّ لهم في الحياة إلا التوغُّل في اللذَّات الجسدية، والزينة الظاهرة؛ فلا يُبالي واحدهم بشرفِ البيت ولا بعزَّةِ الأمة، يُخرِبون بيوتَهم بأيديهم، ويُبسِلون أمتهم بسوء مساعيهم، بل هم آلات التفريق والتحليل؛ لأن كل واحد منهم يهتمُّ بلذة نفسه، ويجتهد في أن لا يتَّصِل بغيره،

وكيف يُمكن أن يتَّحد بمجموع قومه من انكمشت نفسُه دون الاتحاد بزوجه، على ما لاتِّحاد الزوجين من العلل والجواذب النفسية والطبيعية والشرعية والاجتماعية؟

يكثر طلب المرأة الغنيَّة لهذا العهد في الطبقة المُتعلمة على الطريقة العصرية فلا تكاد ترى بين شبان هذه الطبقة إلا الباحثين عن البنات الوارثات؛ أو اللواتي ينتظر أن يرثن مالا كثيرًا، وأرضًا واسعة، ودورًا عامرة، ولا تكادُ تسمع منهم عند ذكر الزواج إلا قولهم: (إنني أطلبُ فتاة تملك دارًا، وكذا فدانًا من الطين) وهذا دليل على أن التعليم الذي تعلموه ما كان إلا ضارًّا بهم، بما أفسد من فطرتهم، وياشقاء من تتزوج بواحد منهم، فإنما يكون حظُّها منه أن يستعين بمالها على التَّمتُّع بشهواتِه الفاسدة خارجَ بيتها، وويلٌ لها إن سكَتَتْ مُوافِقَةً، وألفُ ويل لها إن نطقت مُخالِفَة.

لو ذهبنا نعدُّ مفاسد هؤلاء المخذولين في اختيارهم هذا وآثاره؛ خرج بنا القول عن حدِّ المقالة المنبهة، ودخل في أبواب الكتب المطولة، وكفى بما ذكرناه مُنبِّهًا للغافل وسائقًا للنظر العقلي في ذلك وللبحث في حال هؤلاء الناس، وفيها عبر وآيات للمتفكرين.

وقد يشتبه على بعض الباحثين ما يراه من الحب، وسكون النفس، والوفاق وحسن المعيشة بين زوجين اختارَ الرجل منهما المرأة لغِنَاها، أو



استحسان صورتها؛ فيظنُّ أن ما قلناه غيرُ صحيح، ونحن لا نجهلُ أن مثل هذا قد يقع فيكون على حد المثل (رميةٌ من غيرِ رام) والسببُ في مثله أن يكون بين هذين الزوجين مُشاكلةٌ في الطباع، وتناسبٌ في الأخلاق، وتقاربٌ في العادات من حيث لا يدري بذلك أحد منهما قبل الاقتران.

ولكن هذا قليل لا سيما في طُلاب المال وعُبَّاده الذين يرضون أن تكون الزوجية وسيلة له؛ لأن من بلَغ منه فساد الفطرة هذا المبلغ قلَّما يهنأ لأحد معه عيش كما قلنا آنفًا.

الطريقةُ المُثلى في الاختيار:

يجب أن يُلاحِظَ في المرأة الصفات التي يُرجى أن يتحقَّق بها مضمون قوله تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) (الروم: ٢١) ، وقوله عز وجل : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) (الفرقان: ٧٤) ، وقوله جل ثناؤه : (محصنين غير مسافحين) (النساء: ٢٤) وهذه الصفات بعضُها بدنيَّةٌ، وبعضُها نفسيَّةٌ، وبعضُها قوميَّةٌ، ومنها ما لا بُدَّ منه في كل امرأة، ومنها مايختلفُ باختلاف أحوال الناس؛ فيُشترط عند بعضٍ دونَ بعضٍ.

[الصفاتُ الجسدية المَشروطة في الزوجة :]

أما الصفاتُ الجسدية: فمِمَّا لا خلاف في اشتراطه منها: الصحةُ، وسلامةُ البدن من التشويه والعاهات المنفِّرَة، ولا حاجة لتعليل هذا الشرط

ولا لبيان سُوء حال الحياة الزوجية عند عدمه؛ فإنه من المعلوم بالبداهة أنَّ النفسَ لا تسكُن إلىٰ ذوي العاهات والأدواء، بل تضطرِبُ وتنزَعِج منهم، وأنَّ المرأة المريضَةَ لا تحصِّنُ الرجل؛ ولا تكون قُرَّةَ عينٍ له؛ بل تكونُ بلاءً عليه، وأمَّا ما تختلف فيه الأذواق فهو ما وراء ذلك مما يُسمُّون الكمال فيه حسنًا بارعًا، وجمالًا رائعًا.

والميل إلىٰ الحسن والجمال غريزيٌّ في البشر؛ وهو مما تختلف فيه الأذواق والمشارب، (وللناس فيما يعشقون مذاهب) ولا نعرف شعبًا من الناس يشترِط رجالُه الجمالَ البارع في الزوج؛ وإنما يعدُّونَه من الأوصاف الكمالية إلا من ذكرنا في النبذة الأولىٰ من هذا المقال، وهم الذوَّاقُون الذين يتزوَّجون ميلا مع الهوىٰ لا اتباعًا للمصلحة، ولا إقامةً لسنة الفطرة.

قد يكون من المصلحة للأكثرين تجنُّب الجمال البارع لمن يتزوَّج؛ لما ذكرنا من منافع الزواج وحكمه، ولكن يُعذَر من يمقت في المرأة صفةً من الصِّفَات؛ إذا لم يرضَ الاقتران بالمتصفة بها؛ كمن يمقت البحترة أو البهصلة أو الرسحاء أو النقواء [١] .

(١) البحترة والبهصلة : القصيرة ، والرَّسحاء : ممسوحة العجيزة ، والنقواء : دقيقة القصب نحيفة الجسم قليلة اللحم في طول .

وقد تكون هذه الأوصاف من المنفرات لبعض الناس، علىٰ أنَّ لكُلِّ ساقطةٍ لاقطةً، وإنما يتخيَّرُ الجمالَ البارعَ أو ما دونَ البارع من يكون مَوضِعًا لتسابق رغبات النساء وأهليهن إليه؛ لمكانَتِه وجاهِه، أو لثروَتِه ومالِه؛ فإنَّ من طبيعَةِ التَّفاضُل أن يكون فيما تصلُ اليدُ إليه، ويسهل الاستيلاء عليه.

[الصفاتُ النفسيَّة المشروطة في الزوجَة :]

وأما الصفاتُ النفسية فهي الأخلاق، والملكات، والعلم، أو العلوم.

فأما الأخلاق فإنها علة لسعادة الحياة أو شقائها في جميع طبقات الناس علىٰ الجملة.

وأفضل أخلاق النساء: العِفَّة والصِّيانَة، لأن معنىٰ الزوجية لا يتحقَّق إلا بالاختصاص، وإنما تكون المرأة مُختصة ببعلها إذا كانت عفيفة.

ثم إن الحكمة في الزوجية هي الإنتاج والنسل الذي يُحفَظ به النوع ويكثرُ به سوادُ الأمة وتعظُم قوَّتُها، واختلافُ الرجال علىٰ امرأةٍ واحدةٍ من أسباب قلَّةِ النَّسل؛ فما هتَكَ النساءُ حجابَ العفة في أمة؛ إلا وقل نسلها بمقدار شيوع الفاحشة فيها، وناهيك بما في اختلاط الأنساب من المفاسد.

لا يوجد عيبٌ من العيوب في الخلقة أو في الأخلاق ذهب بهناء الزوجية وغبطتها، ويمحو آيات منافعِها وحكمَتِها كخيانة المرأة للرجل في نفسها، ويُغنينا عن الإسهاب في بيان ذلك ما هو ثابتٌ في الغرائز ومعروفٌ بالاختبار.

وقد منَّ الشاعر العربي علىٰ أولاده بتخيُّر والدتهم من ذوات العفة، قال:

فـأوَّلُ إحسـاني إلـيكم تخـيُّري لماجـدَةِ الأعـرَاقِ بـادٍ عفافُهـا

ومن غريب إكبار الرجال لعفَّةِ نسائِهم أنك تجد الفاسقين من أشد الناس غَيرة؛ لأنَّ علمهم بفساد النساء يزيدُ في حذرهم علىٰ نسائهم أن يكُنَّ كمن يعرفون من غيرهن؛ وهذا من أسباب قلَّةِ الزَّواج في البلاد التي يكثُر فيها الزنا؛ لأن أكثر الرجال يخافون إن يُبتَلوا بمن لا عفة لهن.

وأغربُ منه ما اشتهر عن الفساق من محاولة بعضهم الاختصاص ببعض البغايا، يُحبُّ الرجل بغيًّا تُوهمه أن له عندها من الحَظْوة ما ليس لغيره؛ فيبذُل لها المال الجم الكثير ليغنيها به عما تكسب من سواه، وتكون خاصةً به دون من عداه، ومتىٰ كانت البغي ترعىٰ العهدَ وتصفي الوُدَّ؟ ولكنه جُنون الرجال بالاختصاصِ والغَيرة؛ يَخرُج بهم عن مُحيط العقل والتجارِب، وكم أدَّىٰ ذلك إلىٰ دماءٍ تُسفك، وأرواحٍ تُزهق.

ومن الأخلاق التي لا يتمُّ لأحدٍ هناءُ العيش مع فقدها: الأمانةُ والحرص والاقتصادُ فإذا لم تكن المرأة أمينةً علىٰ ما يُعهَد إليها حفظُه، حريصةً علىٰ ما بين يديها من مال الرجل وكسبه، مُقتصدَة فيما تنفق = تسوء حال البيت ويقع فيه الشقاق ويحيطُ به الشقاء.

وأما الصفات والملكات التي تختلف الرغبةُ فيها باختلاف الأشخاص والطبقات، فأهمُّها عند الطبقات المُرتَقِية بالعلم والتربية: النظامُ وتدبيرُ شُؤون البيت، وإذا كانت بيوتُ الشعر في الصحاري، وشعاف الجبال، وأكواخ الفقراء وبيوت الفلاحين في المزارع والقرىٰ، ليس فيها من الأثاث والرياش والماعون، ولا من المرافق والأعمال ما تعوز في إدارته وتدبيره مَلَكَةُ النظام المكتسبة بالعلم والعادة والقدوة؛ فإن في دور الطبقات العالية والمتوسطة من المتعلمين وكذا غير المتعلمين ما لا يتم نظامه إلا إذا كانت ربَّةُ الدَّار مُدرَّبَةً علىٰ النظام والتدبير.

نعم، إن غيرَ المُتعلمين لا يُؤلِمهم من فَقَد النظام في بيوتهم، ما يؤلِم الذين عرَفوا قيمة النظام وفوائِدَه وتربُّوا عليه؛ أو حَمَلهم العلمُ بفائدته علىٰ طلبه والاستقامة علىٰ طريقته.

يبلغ حبُّ النظام ببعض العارفين مَبلغًا لا يهنأ له عيش؛ ما دامَ يرىٰ في داره شيئًا من الخلل الذي لا يشعر غيرُ العارفين بمعرفته بكونِه خللا يُطلَبُ إصلاحه، ككون حجرة النوم قليلة الأثاث، تُعرض فُرُشها وحشايا سريرها للشَّمس والهواء كُلَّ يوم، وككونِ كُلٍّ من حُجرة الجلوس، وحُجرة الطعام، وحُجرة المكتب وغيرِهنَّ علىٰ طريقة كذا وكذا.

ومن المتعلمين من يرىٰ من ضروريَّات الحياة أن تكونَ نفقات البيت كلُّها في يد ربَّتِه، وأن يكون العمل فيها بمقتضىٰ ميزانيَّةٍ سنويَّةٍ، فإذا لم تكن امرأته قادرةً علىٰ ذلك؛ فإن نفسَه لا تسكُن إليها، ولا تكون هي قرة عين له.

ولا تقل إن هذا يدخل في صفةِ العلم الذي ينبغي أن تكون عليه المرأة؛ فإن العلمَ لا يكفي فيه، ولكنه شرطٌ له؛ فما كلُّ من يتعلَّم علمًا يقدِر علىٰ العملِ به، وإنما يقدِر عليه من يقرن العلمَ بالعمل والمزاولَةِ.

كثُر في التُّرك عددُ الرجال الذين يريدون أن تكون المرأة قَهْرَمانةً [١] وريحانةً معًا، وفي نسائهم - لاسيما في الآستانة - عددٌ غير قليل قد رُبِّين علىٰ ما يحبُّ الرجال، وجميعُ المتعلمين من النصارىٰ، وكثيرٌ من المسلمين في سوريا ومصر علىٰ هذا الرأي أيضًا، ولكن عددُ المسلمات المُتعلِّمات المتربِّيات علىٰ هذه الطريقة قليلٌ جدًّا في القُطرين، ولذلك صار الزواج يقلُّ في المتعلمين رويدًا، وإذا ارتقىٰ التعليم والتهذيب عما هو عليه الآن في الرجال؛ فإن هذه القلة تزيد زيادة فاحشة، ولكن أكثر المتعلمين لم ترتَقِ نفوسُهم عن اتِّخاذ المرأة ريحانة يُتمتَّع بها ما صلحت للتمتع؛ كالزهرة تُشمُّ ويُعتنىٰ بها ما دامت غضة ذكية؛ فإذا ذَبُلت أُلقيت، ولا رغبةَ لهم فيما وراء هذا إلا بأن تكون ذاتَ مالٍ يَتمتَّعُ به الزَّوجُ كما يتمتَّعُ بصاحِبَته؛ فهي عندهم من جُملَة المتاع لا فرقَ بينها وبين ما

---

(١) القَهْرَمان : هو المسيطر الحفيظ علىٰ ما تحت يده .

يحصُل معها إلىٰ دار الزوج من الأثاث والماعون، إلا كما يفضلُ إناءٌ إناءً آخرَ من جنسِه أو نوعِه، ولو كثرَ عددُ الفِتْيَان المُهذَّبين لتبعه كثرة الفتيات المهذَّبات؛ لأنه متىٰ عُرِف واشتهر أن جماهير الشبان المحترمين لا يرغبون في غير المُهذَّبة القادِرَة علىٰ إدارة المنزل، وإقامَةِ النِّظام فيه؛ بادرَ الناس إلىٰ تربية بناتِهم علىٰ الطريقةِ المرغوب فيها؛ لأنَّ الفتيات يطلبن الفتيان دائمًا بلسان الحال والاستعداد، فكلُّ ما يشكو منه بعض الشُّبَّان المُهذَّبين من سوء تربيةِ البنات؛ سَبَبُه سوء تربية البنين في الجمهور.

وإن لي كلمةً قلتُها، ثم علمت أن للأوربيين كلمةً تخالفها؛ فأذكرهما هنا، أما كلمتهم فهي: « كما يريد النساءُ يكون الرجال » ، وأما كلمتي فهي : « كما يريدُ الرجال يكون النساء » ، والدليل علىٰ هذا أنَّ النِّسَاء لا استقلالَ لهُنَّ في أنفُسِهنَّ وإنما هُنَّ تبعٌ للرجال عندَ جميع الأمم .

يُولَد للزوجين غلامٌ وجارية؛ فيُربِّيان الغلامَ علىٰ أن يكونَ رجُلًا مُستقلا ببيتٍ كبيتِهما، وعلىٰ أن ينهَضَ بكفالَتِهما عندَ الكِبَر أو العَجز إذا كانا فقيرين، ويُربِّيان الجارية علىٰ أن تكون تابعةً لرجل يتزوج بها فيعولُها ويكفَلُها فيكتفيان أمرها، ينشأ في الغلام من أوَّلِ سنِّ الإدراك شعورُ الاستقلال بنفسه وحاجةِ غيره إليه، وينشأُ في الجارية شعورُ القُصُور والحاجة إلىٰ كفالة رجل غريب مجهول ستكون تابعة له.

ومن التقاليدِ العامَّة في أُمَّتنا وفي غيرها أنَّ هَمَّ النساء الأكبر هو: أن يكُنَّ بحيث يحبهنَّ الرجال ويرغبون فيهن؛ لأنهن في حاجة إلىٰ كفالتهم ولا يسهل عليهنَّ طلبهم إلا بلسان الاستعداد، وكونِهنَّ كما يحبون ويرغبون كما قلنا آنفًا، ثم إن الوالدين اللذين يربيان الغلام والجارية يعلمان أن تزويج الجارية أعسر عليهما من تزويج الغلام؛ من حيثُ إنه لا عارَ عليهما ولا عليه في التماس امرأة بالطلب والبحث؛ ولا ممن هم دونهم، وأنَّه من العار العظيم أن يبحثا عن زوجٍ لبنتهما، ويعرِضَاها علىٰ الرِّجال، وإن كانوا من الأكفَاء، وأشدُّ من ذلك عارًا أن تبحث هي عن الزوج وتعرِضَ نفسَها علىٰ من تظنُّ أنَّه يرضاها، وإن الشَّرَف والمَصلحة محصُوران في تعريضها للخاطِبين بتربيتها علىٰ ما يُحبُّ الأكفاء ويرضون.

نعم، إن الأوربيين قد حاولوا تربية النساء علىٰ الاستقلال وتعليمَهُنَّ طُرُق الكسب وجعلوا للبنات رأيًا في اختيارِ الأزواج، ولكنَّهم لم يخرُجوا عن جعل المرأة تابعةً للرجل ولم يقدِروا علىٰ جعل أكثر النساء مُستقلات في معيشتهنَّ، غنياتٍ عن الرجال، بل هم الذين يُربُّون بناتِهم علىٰ ما يرغَب فيه جمهور فتيانهم، ويخطبون الزوج بالحال وبالمال جميعًا، ويشعرون من سعادةِ الحياة الزوجية بما لا يشعر بمثله من لم يبلغوا شأوهم في الحياة الاجتماعية، وللجارية المخطوبة عندهم مقام رفيع، ولربَّة البيت مكانةٌ عالية، ولأمِّ الأولاد

المقام الأعلى، إنما قالوا كلمتهم تلك للترغيب في تعليم المرأة؛ إذ لا يقدر الرجال على إتقانِ التربية إلا بإسعاد النساء لهم عليها، ثم إن هذه التربية الاستقلالية قد أضرَّت بالنساء أنفسهن حتى كثرت أصوات الكاتبات منهن بالشكوى منها، ونقلنا بعض ما كتب في المجلد الرابع، فليراجع.

[الصلةُ بين الدينِ والأخلاق والردُّ على المُتفرنجين :]

مَلاك تهذيب الأخلاق وقِوام المَلَكات الدين؛ فلو رُبِّي البناتُ تربيةً دينيَّةً صحيحةً لتمَّ لهنَّ تهذيب الأخلاق، وكُنَّ مَصدرًا لمحاسن الأعمال، وقُرَّة أعين للرجال، وقد عرفت الأمم الحية ذلك؛ فعنيَت بتربية البنات على آدابِ الدين وأخلاقِه وأعمالِه على فسادِ عقائدِ الكثيرين من عُلمائها وحُكمائها؛ ذلك بأن هؤلاء الذين رأوا في دينهم ما لا ينطبق على علمهم القطعيِّ فتركوا الدِّين للعلم يعتقدون أن الدين هو رُوح التهذيب والآداب في البشر، وأن هذا الرُّوح هو الأصل في الحياة الزوجية والحياة القوميَّة لاسيما في النساء والناشئين؛ فإذا هو زال تعذَّر الاستغناء عنه أو استبدال غيره به؛ كالشَّرَف والعلم بالمصلحة.

والذين جروا على هذه الطريقة من نصارى الشرق يتحامون الانتقادَ على الدِّين في حضرةِ النساء - وإن كانوا لا يعتَقِدون ولا يُؤمنون - لئلا يتسرَّب الشكُّ والارتيابُ إلى نُفوس النساء، بل أخبرني بعض علمائِهم وأدبائِهم المشهورين أنهم يكونون في النادي أو السامِر ينتقدون بعض رجال

الدين منهم؛ فتدخلُ إحدى النساء فيُحوِّلُون الحديثَ لكيلا تسمعَ انتقادَهم فيقلَّ احترامُ الدين من نفسها ويضعف الشعور به في قلبها.

ولا تجدُ جُزءًا من هذه العناية عند المسلمين الذين جهلُوا الدين فأهملوه، بل ولا عند الذين سَلِم اعتقادُهم وحَسُن عملُهم، وكلُّ ما عند النساء المسلمات من الدين فهو من تقليدُ الذين نشأنَ فيهم وتربَّينَ بينهم ليس للرجل فيه عناية ولا عمل، ويا ليت فُسَّاقَ قومِنا وزنادقَتَهم يكتفُون بإهمال تربية النساء على آدابِ الدين وتعليمهنَّ أحكامه، ولا يُظهرون لهنَّ ما هم عليه من الفساد والإلحاد، فقد حدثني كثيرون من الثقات المختبرين أن كثيرًا من المسلمين (الجُغرافيين) (١) يجتمعون مع عيالهم لطعام الغداء بعد الظهر في شهر رمضان، وأنَّ منهم من يتزوَّجُ بالمرأة فيُكرهها على شُرب الخمر معه، وأخبرني شيخٌ من أهل القاهِرَة أنَّ رجُلا تزوج ببنت من أقاربه - أي أقارب الشيخ - فدعاها إلى شرب الخمر معه فأبت ولما أعياه إلزامُها طلَّقها.

وأغربُ من هذا ما يتحدَّثُون به عن بعض أصحاب البيوت أو البُيوتَات من إشراكِ البنات مع الرجال في مُعاقَرَة الخمر، ومن إحضار أهلِ الرقص

---

(١) نُعبِّر على المسلمين الذين ليسوا على شيء من الإسلام بالمسلمين الجغرافيين؛ لأن الإحصاء الذي يذكر في كتب الجغرافية يعدهم منهم، وقد نبهنا على هذا من قبل.

والعزف من الرجال والنساء إلى البيوت واجتماعهم في بعض الحجرات على المعاقرة والمخاصرة، والنساء يَسمَعْن وينظُرْن من وراء السُّجوف والأستار.

يظنُّ الكثيرون من فُسَّاق البلاد المشرقية أنَّ الدِّين في أوربا قد صار نسيًا منسيًّا، وأن ذلك لم يزد أممها إلا ارتقاء؛ لأنه أثرُ الارتقاء؛ وذلك أنَّ هؤلاء لا تتوجه نفوسهم ولا يهديهم استعدادُهم إلا لمعرفة أمثالِهم، والصوابُ أن أكثر أهل أوربا متدينون، وإنما أبطلوا التقاليد النصرانية التي تنافي العمران والارتقاء؛ لأنها ليست إلا من وضعِ الرؤساء؛ وهم مع ذلك أشدُّ الناس تعصُّبًا لدينهم، وعلى من يخالف دينهم، ولا ينافي ذلك كثرةُ الفسقِ في بلادهم لا سيما التي تغلب فيها الكاثوليكية كفرنسا وإيطاليا؛ فإن من الأسباب في ذلك المذهب -الذي يعد من أصوله - : أن القسوس والرؤساء يغفرون الذنوب، كما أن من أسبابه: الحرية الشخصية، وعدم النكير، وإباحة الخمر (أم الخبائث)، ولقد يسهُل على الفاسِق أن يجدَ كثيرًا من الفاسقين والفاسقات في كُلِّ المُدن العظيمة في الأرض، حتى ما كان فيها الفسق مُنكرًا وممنوعًا إظهارُه لا يراه إلا الباحثون عنه، ومن بحث عن شيء مما لا يخلو العمران منه وجده؛ فإذا هو قصر همه عليه، ظن أن كل النساء أو جلهم على مذهبه فيه.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من تَوَهُّم

أهل فرنسا أقل الأوربيين تمسُّكًا بالدين؛ لتطرُّفِهم في الحرية والجمهورية التي يرون سلطة الكنيسة الكاثوليكية خطرًا عليها، ولذلك قاوموا جمعيات القسيسين ومدارسهم، وقد سألت فرنسيًّا عن تدين قومه فقال: « أكثرنا مُتديِّنٌ يحب الله، ولكن لا نُحب الكنسية » .

إذا فرضنا أن تعميمَ التَّعليم والتربيةَ على حُبِّ الوطن والآداب القومية قد يغني عن الدين في إصلاح حال البيوت والجمعيات؛ فأوربا هي التي يمكنها أن تستغني عنه بذلك ولكنها لم تقل بذلك ولم تعمل به، ولا أدري بماذا يستغني المسلمون عن آدابهم الدينية التي أمسوا لا يبالون بها، هل الرَّابِطَة الوطنيَّة التي يلفظ بها مصطفى كامل وأضرابه من الأحداث المتفرنِجين كافية في هذه الأمة - التي غلب عليها الجهل والأمية، ووقع معظم أوطانهم في قبضة الدول الأجنبية - لأن تصلُح ما أفسدَ الزمان فيها من الآداب الشخصية والروابط الزوجية لتكون منها أمة عزيزة قوية، وهل يكفي في نفخِ رُوح هذه الحياة الوطنية أن ينعَقَ ناعقٌ في الأمة بمدحِهَا، وإن لم يسمع نعاقه إلا قليل ولم يفهم مراده منهم إلا أقل القليل، وأكثر من فهم ومن لمن يفهم، يرى أن النفاق وسيلة للدرهم؟

ومن العجائب أن هؤلاء الأحداث المتفرنجين يهذُون أحيانًا أو كثيرًا بالكلام في الأمة والملَّة، ويشكُّون بالقول من سوءِ الحالِ وخَطَرَ الاستقبال ثُمَّ

لا ينتَبِهون لوجُوب بثِّ رُوح الدين في البيوت، وتربيةِ النساء على أعمالِه وآدابِه ليُربُّوا الأطفال عليها، بل تراهُم بسيرَتِهم عونًا للجهل على إفساد بقايا الدين التقليدية؛ إذ لا يتعلَّمُون شيئًا من أحكام الدين، ولا يَعمَلُون بما هو معلومٌ منه بالضرورة، ولا يسألون عن دينِ من يخطبونها؛ وإنما يسألون: هل تعلمت لغةً أجنبية؟ هل تعلمت العَزْف على البيانو والعُود؟ هل عندها مالٌ كثير يساعدنا على المَصيفِ في أوربا والتمتع بلذاتها؟

وأعجبُ من هذه أنهم يدعون أحيانًا الانتصار للدين بذمِّ أوربا وذكر طمعِها في بلاد المسلمين، واعتدائها على استقلالهم وعلى دينهم بما تبعثه من الكتب والدعاة إلى النصرانية.

ويزول هذا العجب إذا عرف سببه، وهو مخادعة المسلمين بإيهامهم خدمة الملَّة لينفحوهم بالدرهم والدينار، وأنَّى يخدم الملة من لا يفهم كتابها، ولا يعرف سنتها، ولا يتحقق بعقائدها ولا يقيم عباداتها، ولا يتخلق بأخلاقها، بل أخذ عن أوربا من الأخلاق والعادات ما يفرق به كلمتها، ويبطل به وحدتها، وينسخ به شرعتها، ثم هو يشكو منها ومن آثارها في إفساد النابتة ومجموع الأمة!

وجملة القول :

إن الحياة الزوجيَّةَ في المُسلمين لا يُمكن أن تكُون سعيدَةً في نفسها ووسيلةً لارتقاء الأمة وتعزِيزها إلا إذا كان الزوجان مُعتَصمين بحبلِ الدين، مُستمسكين بعُروته في الأخلاق والآداب والأعمال؛ ليكونا قدوةً لأولادهما في ذلك.

وإن الخطر الذي يُهدِّد المسلمين ويُنذرهم بزوال سُلطتهم من الأرض لا يزول إلا بصلاح حال البُيوت الأدبية على هذا الوجه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» (رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ما عدا الترمذي عن أبي هريرة) ، ولكن من لنا من يصلح لنا أخلاقنا، وآدابنا الدينية، وليس لنا زُعماء ولا سُراة من أهل الدين والحكمة ؟ وإذا ظهر فينا زعيمٌ فإننا لضَعف استعدادنا لا ننتفعُ به، بل يحكم فيه جمهورنا كلامَ الأحداث المغرورين، الذين يضرُّهم ويفضحهم ما يدعو إليه من إحياء روح الدين !

[اشتراط التعلم في الزوجة :]

وأما العلم فلا يشترطه في المرأة أحد في بلادنا إلا ثُلَّةٌ من المتعلمين والمُتأدِّبين على الطريقة الإفرنجية، وقليلٌ من العارفين بكُنه مدنية الإفرنج الذين يقدِرُون محاسنها قدرَها، وإن لم يتعلموا على طريقتهم.

ولا يزال أكثر المسلمين لا يعقلون لتعليم المرأة فائدة، بل يرونه ضارًّا من جهة واحدة هي عندهم لا تُوازَن ولا تُقابَل بشيء إلا وتكون أربى منه وأكبر، وهي أن البنتَ المُتعلمة تجرأ على الرجال، وتقدم على مكاتبة من تميل إليه من الشُبَّان، وإنه ليوجَدُ في المتعلمات لهذا العهد من يحكى عنهن ذلك، ومثل هذه الحكايات تسري وتَذيعُ بسرعة البرق وتُؤخَذ بالتسليم، ويجري فيها القياس للقطع بأن علَّتها التعلُّم، وأنه حيث وُجِدت العلة لزمها المعلول لا محالة، ولا يمكن إقناعُ العامة بأن العلم ليس علَّةً لمكاتبة البنات للشبان يلزمُ من وجودها الوجود، وإنما هو شرطٌ يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم؛ لأن العامَّة لا تفهم مثل هذه الحجج وخاصة النساء، فالعمدة في إقناعهم بمزايا تعليمِ النبات هو ظهور أثره الحسن في المُتعلمات بمصر وتونس وسوريا وغيرها من الأقطار، ولم يظهر.

على أنَّ التقليدَ يفعلُ في الأمم ما لا يفعل الإقناع؛ وأشدُّ الناس استعدادًا وقبولًا له الشَّعب المصري، وإذا وُجِد في أمرائه وكبرائه عنايةٌ بتعليم البنات تقليدًا للإفرنج الذين يُعاشرون ويمازِجُون، فلا بُدَّ أن يعم التقليد جميع الطبقات، وقد ظهرت بوادر ذلك منذ أعوام، وهي تنمو مع السنين والأيام، فالآباء والأمهات صاروا ينبِذُون بناتهم إلى المدارس، وهم لا يدرُون ماذا يتعلَّمنَ ولا يعرفُون ما المصلحة في ذلك إلا أنَّ البنت المُتعلِّمة يرغبُ فيها

الخاطبون الأغنياء ما لا يرغبون في غيرها، ثم إنهم بهذا الاندفاع لا يميزون بين مَدرسة إسلامية أو غيرها، ولا يفكرون في خطر إفساد عقيدة البنت وتحويلها عن دينها أو عاداتِ قومها وخلائقهم المميزة لهم، ولا في كونها تطرحُ الحياء وتتجرأ علىٰ مكاتبة الرجال - كما يعتقدون - لأن تيارَ التَّقليدِ الجارف لا تقفُ في طريقه هذه الخواطر إن هي طافت بهذه العُقُول الضعيفة، والقُلوب الميتة التي أعوَزَتها البصيرةُ والعزيمة، فلم تجدهما في وراثة ولا تربية.

وفي هذا الاندفاع خطرٌ عظيم علىٰ الأمة، كُنَّا ولا نزال نُحدِّث الناس به؛ فيقبله المعتدلون وينبُذه الغلاة في التفرنج، وقد أتيح لنا في هذه الأيام ما يقنعهم وهو ما قاله اللورد كرومر في تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٤، وإننا نذكره هنا لأن بحثنا في الحياة الزوجية إنما هو من حيث هي ركنٌ لحياة الأمة وسعادَتِها أو عكس ذلك.

قال: « (تعليمُ البنات) : كثيرًا ما أسمع الناس يقيمون الحجج والأقيسة علىٰ حمل بعض المسائل السياسيَّة والإدارية في برِّ مصر، ويبنونها علىٰ فرض أن المصريين لا يزالون مُتَّصفين اليوم بصفات أجدادهم وخصائصهم، وعندي أن هذه الحجج والأقيسة لا تخلو من سَفْسَطة، فالتغيُّر حاصلٌ ولست أقصِد أن أُعظِّمَه أو أبالغَ فيه، وإنما أقول: إنه لا يمكن أن كلَّ خُلُقٍ وصفةٍ من الأخلاق والصفات القوميَّة يتغيَّر تغيُّرًا تامًّا في رُبع قرن، ولو أمكن ذلك لما كان

مُستحسنًا؛ لأنَّه يُخشىٰ في مثل هذا التغيُّر السريع أن يذهب الحَسَن من الأمة بجريرة الرديء، ولكن ليكُن معلومًا عند الحُكَّام المصريين وعند كل من له اتِّصالٌ بأمورِ مصر أن هناك قُوَّاتٍ عاملةً قد أثرت في أخلاق المصريين القوميَّة فغيَّرتها بعض التغير، وستغيِّرُها أكثرَ من ذلك علىٰ مرِّ الأيام، وهذه القُوَّات العاملة معظمُها يعملُ تدريجًا ويُغيِّر رُويدًا رُويدًا حتىٰ لقد يخفىٰ عملُه عن عيون المراقبين في بعض الأحوال، ولكنَّ بعضَها يعمل سريعًا، حتىٰ لقد غيَّر تغييرًا ظاهرًا محسوسًا.

ومن الشواهد علىٰ ذلك تعليمُ البنات؛ فإنَّ الرأي العامَّ المصريَّ تغيَّر في هذه الأعوام الأخيرة تغيُّرًا كليًّا في هذه المسألة الجوهريةِ العظيمةِ الشأن.

ومما يزيدنا استعظامًا لهذا التغيُّر في الرأي العام أنه آخرَ ما كان الناس – حتىٰ الذين يُراقبون منهم أخلاق أهل الشرق أدقَّ مُراقبة – يتوقَّعُون حُدوثه بمثل ما حدث من السرعة؛ نظرًا إلىٰ الآراء المعهودة عن مَقام المرأة في بلاد مصر.

ولكنَّ مِصرَ بلاد العجائب والغرائب، فلا عجب إذا كذَّب أهلُها نبوءاتِ المصلحين الاجتماعيين بتحوُّلهم عن حال إلىٰ حال؛ تحوُّلًا لم يكن يخطرُ علىٰ بال، فقد كانوا منذ عشر سنوات لا يُبالون بتعليم البنات، بل ربما استخفوا به واستنكفوا منه، ولذلك كانت كتاتيبهم خالية من بناتهم سنة ١٩٠٠ ما عدا

(٢٧١) كُتَّابًا، من جملتها الكتاتيب التي تحت مراقبة الحكومة، وكان عدد كُل البنات اللواتي يتعلمن فيها (٢٠٥٠) بنتًا، أما في سنة ١٩٠٤ فبلغ عدد الكتاتيب التي يتعلمن فيها (١٧٤٨) كُتَّابًا، وبلغ عددهن فيها (١٠٤٦٢) بنتًا.

وأبلغ من ذلك أن (١٠٠) بنتًا طلبن دخول المدارس الابتدائية العالية ومدارس تعليم المعلمات بالقاهرة في السنة الماضية؛ فلم يُجَبْنَ إلى طلبهنَّ لعدم وجود محلٍّ لَهُنَّ فيها.

فأحسن خدمة يخدم بها المصريون المعارف والتعليم في بلادهم تقوم بإنشاء مدارس ابتدائية مُنظَّمَة للبنات في بنادر القطر.

هذا وإنَّ قِلَّة المُعلِّمات المُدرَّبَات على التعليم أفضَتْ إلى تأخير تعليم البنات في جميع فروعه، ولكنَّ العقبات في هذا السبيل أسهلُ من العقبات التي في سبيل وجود المعلمين المُدرَّبين على التعليم؛ فإن عند نظارة المعارف في المدارس الابتدائية العالية والكتاتيب عددًا قليلًا من البنات المسلمات المُمَرَّنَات على التعليم.

وعليه يتسع نطاقُ تعليم البناتِ شيئًا فشيئًا، وفي مدرسة المعلمات الآن (١٥) تلميذة ينتهي مُعظمُهُن منها في الثلاث سنوات القادمة، وينتَظِمْن في سلك المُعلِّمات.

وقد أُخبرت أنهنَّ متى انتهين من المدرسة لم يعسُر وجود غيرهنَّ من اللواتي يَدرُسْن مكانَهُنَّ.

أما مقدار ما تؤثره هذه النهضة لتعليم البنات في أفكار الجيل المقبل من بنات مصر وفي أخلاقهن ومقامهن فستُظهره لنا الأيام على مر الأعوام.

على أنه إذا تأتَّى عنها تغيير في مقامهنَّ فالمأمول أنَّ هذا التغيير يكون تدريجًا، وعسى أنَّ المصلحين الاجتماعيين - من أبناء مصر - يحفظون في أذهانهم قول مثلهم العربي : « العجلة من الشيطان والتأني من الله »، وعلى الأخص في هذه المسألة أكثرَ مما في غيرها؛ لأن العجلة فيها يمكن أن تؤدي إلى طامَّةٍ أدبيَّةٍ عظيمةٍ، على أنه إذا لم يتغيَّر مقام المرأة المصرية تغيُّرًا تدريجيًّا فمهما قلَّد المصريون أهل التمدُّن الأوربي ظاهرًا فهيهات أن يتشرَّبُوا روح التمدُّن الأوربيِّ الصحيح بأحسنِ مظاهره حقيقةً » اهـ كلام اللورد.

فلينظرْ وليتأملِ القارئ البصيرُ كيف عدَّ هذا السياسيُّ الحكيمُ تحويلَ أهلِ مصر بسُرعةٍ من حال إلى حال في هذه المسألة من العجائب والغرائب، التي لم تكن تخطر في بالِ أحدٍ من علماء الاجتماع، وكيف أشار إلى أن هذه العَجَلَة شيطانية.

ونقول: إن نصيحته هذه للمصلحين من أبناء مصر سيحفَظُها له التاريخ ويذكُرُها له في المستقبل مقرونةً بإجلال الفضيلة والإخلاص، لا سيما إذا كان إثم الانقلاب المنتظر أكبر من نفعه كما يتوقع.

كانت حال النساء في أوربا على أسوء ما يخطر في بالِ البشر من المهانة والاحتقار، ولذلك كان ما يُسمُّونه (رد الفعل) في التحوُّل والانقلاب عظيمًا؛ فبعد أن كانوا يعتقِدُون أنَّ المرأة ليسَت من البشر، وإنما هي حيوانٌ دون الإنسان وفَوق سائر الحيوانات، وبعد أن كانوا يسُومُونها الخسف، حتى حَرَّموا عليها أكل اللحم، ومنعوها الكلام والضحك في حَضْرة الرجال، وأوجَبُوا عليها السمعَ والطاعةَ لزوجها في كل شيء، ولو كان ضارًّا أو خسيسًا أو شاقًّا لا يُطاق؛ أطلقوا لها العنان تتعلَّمُ ما تشاء، وتعملُ ما تشاء، وتَتَهَتَّكُ كما تشاء، وتحكُم كما تشاء، حتى صارت تشاركُ الرجالَ في أعمالهم الخاصة خارجَ البيوت، فأُهمِل من أمر نظام البيوت بقدر ذلك، ولا غنى للبُيُوت عن النساء، وكلُّ عملٍ خارجَها فهو مُستغنٍ بالرجال عنهُنَّ، وانتهى الأمر بكثيراتٍ منهُنَّ إلى اختيار التبتُّل فرارًا من أثقال الزوجية، وناهيك بانتشار البغاء، وشيوع الفاحشة وما في ذلك من المفاسد والمضرات.

وقد أنشأ العلماء والحكماء يشعرون بخطر هذا الإطلاق لصنفٍ لا همَّ لأفراده غيرُ الزينة والراحة، واتِّباع هوى النفس؛ لأن وجدانَهُنَّ أقوى من

عقلِهِنَّ، ولكن كلُّ ما يتعلق بصفات الأمم وشؤونها لا يظهرُ نفعُه أو ضرَرُه، ولا يمكن إيجادُه أو منعُه إلا في زمنٍ طويل.

ليس من غَرَضنا في هذا المقال أن نَّبحث عن أحوال الأمم في انتقالها وتحوُّل أحوالها، ولا عن حال النساء في أوربا، ومنافع تعليمهن ومضاره، **وإنما غرضنا أن نبين أن العلمَ الذي ينبغي أن تعرِفَه المرأة هو ما لا يُخرُج بها عن كونها امرأة، وهو ما تكونُ به قُرَّةَ عين وخيرَ سكنٍ للرجل المتعلم، يَحسنُ معها به عيشُه ويكون عونًا لها على تهذيب ولدِه وإدارة شئون بيته، لا ما تكونُ به فيلسوفةً ولا سياسيةً ولا صانعةً**، وهذا ما اختارتهُ أرقىٰ دُوَل أوربَّا في العلوم والمعارف، وهي دولةُ ألمانيا التي يَنسبُ إليها بعض دول أوربا التقصيرَ في تعليم النساء، وستضطرُّ كل الدول إلىٰ سلوك سبيلها في يوم من الأيام.

ليس البيتُ مملكةً فيتوقَّفُ عمرانه علىٰ العلُوم العاليةِ والفُنون الصناعية والزراعية والتجارة، وتتوقف إدارَتُه علىٰ معرفةِ الشرائع والقوانين، وليسَتِ العلاقة بين البيوت كالعلاقة بين الدُّول فتضطر ربة البيت في حفظ حقوقه إلىٰ التوغل في السياسة والفُنون العسكرية، حسبُ المرأة أن تتقن لغةَ أُمَّتها وتعرِفَ آدابها وأن تعرفَ الحساب وعلمَ تدبير المنزل، وعلمَ حفظ الصحة، وعلمَ الأخلاق وعلمَ التربية، وأن يكون هذان العِلْمان قائمينِ علىٰ أساس الدين

مقرونين بمعرفة عقائده وآدابه وأحكامه والتاريخ العام بالإجمال، وتاريخ أمتها وبلادها بالتفصيل وعلم تقويم البلدان وعلم الاقتصاد.

ثم مبادئ وموضوعات سائر العلوم وفوائدها بقوَّة الإجمال، وأن تعرفَ الطبخ والخياطة والتطريز وما يتصل بذلك، ولا يصُدَّنَّها عن هذا أنها من بيوت الأغنياء الذين لا يطبخون طعامهم ولا يخيطون ثيابهم بأيديهم؛ فإن علّمَها بذلك وتمرُّنَها عليه نافعٌ بل ضروري، وقد بلَغَنا أن قيصرةَ روسيا تُحسن الطبخ والخياطة، وكانت فيكتوريا ملكة إنكلترا وإمبراطورة الهند تنسج وتخيط وتطرز، فهذا كمال للنساء إن لم يعملن به فعليهن أن يعلَمن كيف يعمَلن في بيوتهن ويعرفن نفقته ودرجة جودته، ويحسن المراقبة والرياسة على الخدم التي تقوم به.

أما معرفة موضوعات وغايات العلوم والفنون المتداولة في الأمم الحيَّة فلها فوائد ، منها : أن لا تكون عدوَّةً أو كارهة لشيء نافعٍ لقومِها، فإن من جَهِل شيئًا عادَاه وكرِهَه، وأن الإنسان يكون ناقصًا بمقدار ما يجهل من المضار والمنافع.

ومنها : أن تعرِفَ قيمةَ زوجِها إذا هي تزوَّجَت بمن يشتغلُ بعلمٍ أو فنٍّ مما يجهلُ النساء تفصيلُه، فإذا رأته يشتغلُ بتجارب زراعية أو كيماوية مثلا عرَفت فضله في ذلك ورجَت له من الفائدة ما تكون عونًا له على عمله، فإنَّ

المرأة التي تجهل قيمة زوجها المعنوية ومعارفه التي يمتاز بها لا يهنأ لها معه عيش؛ لأنها لا ترىٰ عمله إلا شاغلًا له عنها؛ كأنَّه ضُرَّة لها وهو لا يهنأ له معها عيشٌ؛ لأنَّه يراها جاهلة بقدْرِه، بعيدةً عنه في نفسه وعقله، وإن شئت قلت: إنهما يكونان شخصين متباعدين بالرُّوح والعَقلِ لا يُمكن أن تتكوَّن منهما حقيقةُ الزوجية التي بينَّا معناها في النبذة الأولىٰ.

ومن تلك الفوائد: أن يكونَ لها رأيٌ فيما تنصرف وجهة أولادها لإتقانه من العلوم والفنون بعد التعليم الابتدائي والثاني.

وكثيرًا ما يموت الوالد وتكون المرأة هي القيِّمَة علىٰ أولادها منه فينبغي أن تعرف وجهتهم في المدرسة وغايتهم في التعليم لتحسن القيام عليهم.

وأما فائدة اللغة وآدابها: فهي بديهيَّةٌ لمن يقول بالتعليم، فالمرأة التي لا تفهمُ لغةَ أُمَّتها العلميَّةَ الأدبيَّةَ تكونُ بمنزلةِ البهائم لا تشعُر إلا بالحاجاتِ الجزئية التي أُودِع الشعور بها في فطرةِ كلِّ حيوان، ويكونُ سكونُ الرَّجُل العالِم الأريب إليها بمقدار الداعية الحيوانية إلىٰ ملامستها في وقت هذه الداعية، وتكون في سائر الأوقات كلاً عليه وبلًاء ومصابًا؛ إذ يراها مُباينة له في إنسانيته لا تشاركه في حُسن تصوره، ودقَّة مدارِكه، ورقَّةِ شُعوره بالمعاني الأدبية والأفكار الاجتماعية، ويرىٰ إقناعَهَا بالمسائل المعقولة والمصلحة القطعيَّةِ مُتعذِّرًا أو مُتعسرًا عليه؛ لأنها ليس لها لغةٌ تعبر عمَّا وراء الضروريات التي

يدور عليها كلامُ العامة، ثم إنه إذا سافر تنقطعُ الصلة بينه وبينها لا يكتبُ إليها ولا تكتبُ إليه فيما يتعلق بشؤون البيت ومصلحة العشيرة إلا إعلامًا بالصحة واستعلامًا عنها ونحو ذلك، ويتعذَّرُ عليه أن يُشعِرَها بما يشعرُ به في سفره من لذة وألم وسرور وكآبة كما يتعذر عليها ذلك.

وأما فائدة الحساب: فلا يجهلُهَا أحد في البشر - إلا أن يكون بعضَ أهل الأزهر - فالمرأة التي تعرفه يُمكنها أن تضبط نفقات البيت على القاعدة التي يسمونها الميزَانِيَّة، فتجعل الخَرْج على نسبة إلى الدَّخْل معروفة، فهو عونٌ على الاقتصاد.

وقلَّما توجدُ امرأة في الأرض لا تشتري ولا تبيع شيئًا، ولا تُعامل أحدًا بالمال، والنساء اللواتي يملِكْن المال والعقار والأرض والعروض كثيرات، والإسلام جعل لهن حقَّ التصرف في أموالهنَّ، فالمرأة التي لا تعرف الحساب تكونُ عُرضة للخطأ في كل مُعاملة مالية؛ فيغشُّها البائع والمشتري والوكيل والأجير، ويطمعُ في اغتيال مالها زوجُها السفيه، ويعبثُ به ولدُها الصغير.

وأما الاقتصاد - الذي يُعدُّ الحسابُ من وسائله - فهو رُوح المعاملة وأسُّ النظام ومِلاك المعيشة ودِعامة السعادة، فإذا لم تكن ربَّةُ البيت عارفةً بهذا الفن عاملةً به فلا يستقيم للمعيشة حالٌ، بل تكون مُضطرِبَة بين أمواج الحوادث يتقاذَفُها اليُسر والعُسر، ويتناوبها الغنى والفقر، وليس الرجل بمغنٍ

في اقتصاده عن اقتصاد المرأة عن رضىً واقتناع، ولا رضىً ولا اقتناع إلا بالعلم والمعرفة؛ بأن مصلحتها ومصلحةَ بيتها في الاقتصاد.

ألم تر أنَّ مُعظم المال يذهب في سَرَف النساء وخُيلائِهنَّ؟ ألم تسمع أنين الرجال وأطيطهم من ثقل النفقة على ما يبتدع النساء كل حين من الأزياء والتنقُّل في ضُروب الحُلِيِّ والحُلَل؟ ألم تعلم بأنَّهُنَّ لا يعذُرْنَ الرجل إذا قال: لا أستطيع، لا أقدر، لا أملك، بل يُنغِّصْن عيشه، ويَسلِبْن راحته، أو يبذلُ لهن ما يطلُبْن ولو استدانه بالربا الفاحش أو باع لأجله الغالي النفيس بالثمن البَخْس؟ هذا مما تعرف، فهل لك أن تضُمَّ إلى معرفة الداء معرفةَ العلاج؛ وهو أن تتزوج بامرأة كاتبة، حاسبة، مُقتصدة، وتجعلَ للبيت بالاتفاق معها ميزانيةً يكون الخَرْج فيها جُزءًا من الدَّخْل، وتكون هي المُنفقة والقَيِّمَة، كما تجعل لأرضِك وعقارِك ميزانيةً تكون أنت المُنَفِّذَ لها، وبذلك تكون امرأتك مقتنعةً بأن ما وُفِّر من الدخل في الحال هو عُدَّةٌ لها ولأولادها في الاستقبال.

جرب كثيرٌ من الرجال هذا العلاج فوجدوه نافعًا مُفيدًا، ومنهم من أسعده الحظ به على غير علم بفائدته؛ فأصاب السعادة عفوًا.

أعرف رجُلًا مُسرفًا كان يضيع كسبُه الكثير بغير عقلٍ ولا حسابٍ، ويضطر إلى الدَّين حتى أخذ الدَّين بتلابِيبِه؛ لأنه كان جاهلًا سَكُورًا، فتزوج

بفتاة كانت يهودية وأسلمت إسلامًا صحيحًا؛ فما عَتَّمَ أن حسُنَت حالُه فقلَّ سَرَفُه، وحسُنَ عملُه، وقضىٰ دينَه ثم صارت له ثروةٌ مُدَّخرة.

وحُدِّثتُ عن رجلٍ في مصر له راتبٌ من الحكومة لم يكن كافيًا لسعته في نفقاته الشخصية؛ فتزوج بفتاة مُتعلِّمة مُهذَّبة؛ فهو يعيش معها في هناءٍ ونعيمٍ ويقتصد من راتبه شيئًا يدَّخِرُه للمستقبل المجهول، بل أعرفُ غيرَ واحدٍ من الفقراء جعلُوا كسبَهم في أيدي نسائهم فكانوا معهُنَّ في عِيشَةٍ راضيَةٍ يزيدُ فيها دخلُهم علىٰ نفقَتِهم زيادةً لها شأن عندهم.

وإنني أظن أنه يصعُب علىٰ أكثرِ النساء أن يبذُلْن جميعَ ما في أيديهن من المال في الأمور الزائدة علىٰ الضَّرُوريات أو الحاجيَّات، ولكن يسهُل عليهن أن يبذُلنَ أكثر مما في أيدي أزواجهن إذا كانت النَّفَقَةُ بيده، فالمرأة الجاهِلَة تقدر علىٰ الحياةِ الاقتصادية في بيت فقير ولا تقدر علىٰ ذلك في بيتِ غنيٍّ ولا مُتوسِّط إلا بالعلم وحُسن التربية.

وأما علمُ حفظ الصحة: فهو ضروريٌّ لكل إنسان سواء كان يعيشُ منفردًا أو زوجًا أو صاحب عيال، ورئيس عشيرة؛ فمن عَرَف هذا العلم سهل عليه التوقِّي من أكثر الأمراض والأوبئة، ووقايةُ من يعولُه منها؛ وإذا هو أصيب بمرضٍ فإنه يحسن وصفُه وبيانُ أسبابه وكيفيةُ سيره للطبيب؛ فيكونُ

أكبر عون له على تشخصيه ومعرفةِ حقيقته، ثم إنه يحسن العمل بما يأمره به الطبيبُ من المعالجة.

فربَّةُ البيت الجاهلةُ بهذا العلم تكون بلاءً على نفسها وعلى زوجها وأولادها، ولا يمكن أن تقلَّ الأمراض والأدواء في أُمَّةٍ إلا إذا تعلَّم نساؤها هذا العلم، فكم من طفل فتَكَ به المرض لجهل أُمِّه بمداواة صحَّتِه، وكم من امرأة قتَلَتْ ولَدَها أو زوجَها بنفس الأدوية التي وصفها الطبيبُ لشفائه لجهْلِها بأسمائِها وبمقادِير ما يُعطى المريض منها.

ولقد يتعسَّرُ على المريض العالِم أن يُحسِن معالجةَ نفسه في بيت قيِّمَتُه جاهلةٌ؛ لأن أيَّ عملٍ في البيت لا يتم إلا بها.

وأما علمُ الأخلاق: فهو عونٌ للإنسان على تكميلِ نفسه في الكبر، وعلم التربية يتوقف عليه؛ لأن من لا يعرف قُوى النفس وكيفيةَ تكوين مَلَكَاتها وانطباعَ أخلاقها وطريقةَ تأديبها وآثارَ صفاتها ووجدانها فهو لا يعرف معنى الإنسان، أو هو ليس بإنسان كامل؛ فيتعذَّرُ عليه تكميلُ غيره بحُسن التربية التي هي أهم ما يجب على المرأة وأعلى ما يُطلَب منها.

ويدخُلُ كلُّ ما تقدم في علمِ تدبير المنزل - ما عدا مبادِئ الفنون وعلم اللغة التي هي وسيلة كل علم -، لأنَّ المراد بتدبيرِ المنزل سياسةُ أهلِه، وموضوعُه حقوقُ كُلٍّ من الزوجين على الآخر، وحقوقُهما على الأولاد

والخدم، وحقوقُ هؤلاء عليهم، وطريقُ قيام كلٍّ بما يطلبه منه، والمرأة هي ربَّةُ البيت ومديرةُ نظامِه؛ فينبغي أن تكونَ عارِفَةً بما عليها، ومُرشِدَةً للأولاد والخَدَم إلى ما يجبُ عليهم تحت رعايتها لينتظمَ شأنُ البيت فتكونَ العيشةُ راضِيَةً، وليتربَّى الأولادُ بالقُدوة الصالحة فيكونوا أعضاءَ صحيحةً عامِلَةً في الأمة.

ومعرفة التاريخ وتقويم البلدان هي التي تُودِع حُبَّ الأمة في القلب، وتبعثُ فيه رُوح الغيرة؛ فإذا كانت المرأة جاهِلَةً بتاريخ أُمَّتِها ومكانَتِها من غيرِها فهي لا تشعرُ بأنها عضوٌ من جسدِ أُمَّةٍ كبيرة، لها حقوقٌ يجب على الأفراد القيام بها، وعلى الوالدين تربيةُ أولادهم على احترامها، والتنافس في المسابقة إليها، واعتقاد أنها دِعامة الشرف وركن العزة والسيادة.

يكون الإنسانُ كبيرَ النفس، وعظيمَ الهمَّة إذا كان يشعر بأن وجوده غير محصور في مساحة جسمه الصغير، وإنما هو واسع بروحه المُنبثَّة في عالمٍ كبير يُسمَّى (الأمة) تعمل له كما يعمل كل عضو في جسده لمصلحة الجسد كله، ويكون أكبر وأعظم إذا كان يشعر بأن وجوده أوسع وأرقى؛ لأنه خُلِق ليعمل ما يفيد البشر كلهم بالتقريب والجمع بين المختلفين، والتأليف بين المتنافرين، وغير ذلك من الأعمال، أو يبث العلوم التي ينتفع منها الجميع، ويكون الإنسان حيوانًا حقيرًا ضيق الوجود؛ إذا كان علمه وعمله موجهين لخدمة

شخصه ومن عساه يتصل به اتصالًا محسوسًا كأهله وعشيرته، ومن كانت هذه حاله فإنه لا يرجىٰ منه أن يربي أولادًا ينفعون أمتهم ووطنهم أو ينفعون الناس أجمعين.

لذلك كان لا بُدَّ لكلِّ إنسانٍ من ذكر أو أنثىٰ أن يعرف التاريخ ليتسع وجوده بقدر استعداده لعله يربي من ينفع الأمة والناس.

وعلمُ تقويم البلدان في معنىٰ التاريخ، بل هو منه في الأصل ثم صارَ أصلًا مُستقلًّا.

تلك إشارةٌ إلىٰ ما يطلب من كمال المرأة وتختار لأجله، وسنكتب كلمة في اختيارِ المرأة للرجل.

اختيار المرأةِ للرجل :

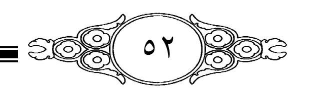
إن الشروط التي تُعتبر ضروريةً في اختيار المرأة زوجًا يجبُ أن تُعتَبر ضروريةً أيضًا في اختيارِ الرجل زوجًا وهي: صحةُ الجسم، وصحةُ النفس، أعني حُسْن الخلُق والاستقامَة، وصحةُ العقل وهذه لازمة لما قبلها.

ويُزاد القُدرة علىٰ النفقة اللائقة - كما يقول الفقهاء - أو القُدرة علىٰ الاستقلال بإنشاء عشيرة أو أسرة - كما يقول الحكماء - وهو ما يريده العوام بقولهم: « فلان قادرٌ علىٰ فتح بيت ».

والقدرة على النفقة اللائقة بحال المرأة تختلف بحسب طبقتها، فزيد يستطيع كفايَة من نشأت في بيت النِّعمةِ والتَّرَف، وعمرو يستطيع أن يُموِّن من نبتَت في أرض الفاقة والشَّظَف، والناس أصنافٌ وطبقاتٌ، والله فضَّل بعضهم على بعضٍ درجات.

وهذا الشرط هو ركنُ الكفاءة الركين في نظر أكثرِ النساء وعُرف أكثر الأولياء، وإن شئتَ قلتَ في عُرف جميع الناس؛ لأنَّ رضاء امرأة بزوجٍ غيرِ قادر على كفايتها مما تعوَّدَت من طعامٍ وكسوةٍ وخدمةٍ نادرٌ لا يُعتدُّ به.

والمرأةُ الغنيَّةُ أحرصُ من الفقيرة على التزوُّج بالغنيِّ؛ لأنَّها وأهلَها يحتقِرُون الفقيرَ، وما زال الأغنياءُ يتعايَرُون بمُصاهرة من ينزِلُ عن درجاتهم في الثَّروة إلا أن يعلُوَهم بمجدٍ أثيل، أو جاهٍ عريض، فيمتُّ إليهم بشرفٍ صاعد أو جَدٍّ مساعد، ومن رفعه المال لا يلبث أن يمدَّ عُنُقَه إلى الجاه، ويحاولَ أن يُصيبه بتنصِّي أهل السؤدد وتذرِّي ذوي المجد المؤثَّل، لا سيما من قلَّ من هؤلاء مالُهم، وساءت في الثروة حالُهم، فالمال والشرف إذا انفردا كان كلٌّ منها شفيعًا للآخر، ومَن جَمَع بينهما لا يكاد يرضى بمصاهرة من فاته أحدُهما، إلا إذا لم يجد له صهرًا مثله، وإنك لتجد من العوانس في بيوتات المجد والغنى ما لا تجدُ في بيوت المتوسطين وأكواخ الفقراء والمعوزين، وذلك خِطءٌ كبيرٌ، وعتوٌّ عظيم.



تُعذر المرأة ويُعذر وليُّها وذوو قرابتها إذا لم يَرضَوا بصهرٍ يعجِز عن كفايتها، لأن المرأة ضعيفةُ الاستقلال قليلةُ الاحتمال، إذا مسَّها العَوَز والإقلال لا تستقرُّ من القَلَق على حال، ثم إنَّها وَلُوع بالحليَة فخورٌ بالزينة، هَلوعٌ عند الحاجة، ضجورٌ من الشدة، فهي أحوجُ من الرجل إلى الكفاية، وأشدُّ تطلُّعًا إلى السَّعَة والزيادة، وإن قومَها ليألَمون لإعوازها ما لا يألمون لعَوَز الرجل منهم - وهو وارثُ مجدَهم وحافظُ نسَبَهم، ونصيرُهم عند الشدة، وغوثُهم عند الحاجة - لما انطَوت عليه نفوسُهم من الثقة باستقلاله، وجدارَتِه بإصابة المخرج من إقلالِه، وما أُودِعَته قلُوبُهم من الشعور برقَّةِ حاشيتها دون التحمُّل وضيق مذاهبها عن التحوُّل، وإن حظَّ الوِلْدَان والأقربين وغيرهم من الرَّحْمة والحنان والخوف والإشفاق والحزن والامْتعاض والغضاضة والنعرة، وغير ذلك من ضُروب الشعور والوجدان إنما يكون على مقدار الداعية الطبيعيَّة لذلك فيهم.

قيل لبعضهم : أي ولدك أحبُّ إليك ؟ فقال صغيرهم حتى يكبُر، وغائِبُهم حتى يحضر، وسقيمُهم حتى يبرأ.

يُشبِه أن يكون الناس عندنا مادِّيِّين، فإنهم يعنون بالبحث عن ثروةِ من يخطِب إليهم ظانِّين أنَّ سعادة بنتهم وهناءَ عيشها مَقرُونان بمالِ من يتزوج بها، وقلَّما يبحثُون عن دينِه وأخلاقه وآدابه، ذلك بأنَّهم يجهلون أن السعادة في

النَّفس لا في اليد أو الجيب، يغفلُون عن حال الجمِّ الغفير من أصحاب الجيوب الملأىٰ والقلوبِ المرضى الذين شقِيت بهم نساؤُهم، فهُنَّ يتمنَّينَ لو كانُوا فُقراء الجيوب أغنياء القلُوب بالعفة والوفاء والحب والإخلاص، إذًا لكُنَّ أنعمَ بالًا وأقرَّ عينًا وأهنأ عيشًا، فإن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ، إلا من هذَّب نفسه الإيمانُ والتقوىٰ؛ وإن من طغيان الغنىٰ، إذا لم يقترن بالأدب والتقىٰ، أن يغيِّر صاحبُه زوجَه وسكنَه ويتغير عليها؛ يغيرها باتخاذ الأخدان، واتباع خطوات الشيطان، ويتغيَّرُ عليها إذا زارت أو زارها الأهل والجيران، فيعذِّبُها بالغَيرة عذاب الضعف، أو يضارُّها ليضيق عليها من غير ذنب، وإنما هو ملل الذوَّاقِين، وتنقُّل المُسرفين، ومن وراء ذلك أن إرشاده عسير، والانتصاف منه عزيز، لا سيما في بلاد فسدت حكوماتها، وأكل السُّحت قضائَهَا، فأين السعادة والهناء في مُصاهرة أمثال هؤلاء؟

يسهل علىٰ الرجل المسلم أن يتخيَّر من ربات الخُدُور من ترضيه، فيعرفُ عنها من وراء الحجاب كلَّ ما يُحب أن يعرفه، ويعسُر علىٰ الفتيات أن يعرِفْنَ ما تجب معرفته لصحة تخير الزوج وإن فارقن الحجال وعاشرن الرجال؛ لأن المرأة سريعةُ التصوُّر سريعةُ التأثر سريعةُ الحكم سريعةُ الانخداع، فهي لهذا قليلةُ الرَّويَّةِ كثيرةُ الخطأ لا سيما إذا كانت عذراء، خاضعةً لسلطان الحياء، تخدَعُها النظرةُ، وتتجاذبها الغرة، ولذلك حظرت الشريعة

الإسلامية على المرأة أن تُزوِّج نفسَها، وجعلت أمرها في ذلك إلى وليِّها وإليها؛ لا بُدَّ من رضاهما معًا، على أنها منحتها من حُقُوق التصرُّف في أموالها ما لم تمنحه لها شريعةٌ سواها، بل تجدُ مُعظم البشر من جميع الشعوب والقبائل المختلفة في الملل والنحل مُتَّفقون على استقباحِ استقلالِ المرأة بتزويجِ نفسها، وعلى وجُوب تفويض أمرها في ذلك إلى أوليائها وعُصبتها، ومنهم من لا يتقيَّدُ باستئذانها واستئمارها - كما أمر الإسلام -، بل كثرت هذه العادة في المسلمين، على ما ورد عن الشارع من الأوامر باستئذانِ البنت في أمرِ زواجها، واستئذانِ أُمِّها أيضًا، فليس للولي أن يستبدَّ بذلك؛ فيزوجها بمن تكره، ولو كان أبًا أو جدًّا.

يحسب أكثرُ الرجال أن للحُسْن والجمال سُلطانًا على قلوب النساء لا يدع فيه لغيره أمرًا ولا نهيًا، وأن شَغَف النساء بالحُسن يعلو شغفَ الرجال به؛ فلو أُطلقت لهن الحرية في تخيُّر الأزواج لما اخترْنَ إلا ذا الوجهِ الجميلِ والطرفِ الكحيل، وإن كان خسيسَ الأبوين صِفْرَ اليدين عادمَ الفضيلتين: فضيلةَ العلم والأدب، هذا هو الوجه في الحجر عليهن أن يتخيَّرنَ لأنفسهن، فإنَّهُنَّ يتَّبِعن الهوى دون المصلحة، فيُصبحن على ما فعلنَ نادماتٍ بعد أن يُقاسِين من استبدادِ سُلطان الجمال، ما لا طاقةَ لهُنَّ به ولا احتمال.

وهذا الحسبان خطأ، سببُه قياسُ أحدِ الصنفين علىٰ الآخر، وهو السببُ في تصدِّي حِسَان الوجوه من الشُّبان لتصبِّي النساء وإغوائهِن، وقد يُعدُّ نجاحهم في التَّصبِّي دليلًا علىٰ صحة القياس وما هو بدليل إلا عند من يجهل التعليل.

إن الفتنة بالجمال أولَعُ بالرجال منها بالنساء؛ فيقلُّ في النساء من فُتَنت بجمال الرجال كامرأة عزيز مصر وصواحبها، ولا يتناول الإحصاء عدد الرجال الذين فتنوا بجمال النساء كبني عُذْرة وأمثال بني عُذْرة من جميع القبائل والشعوب، هذا هو السبب عندي في شكوىٰ الرجال من قِلَّةِ الوفاءِ في النساء.

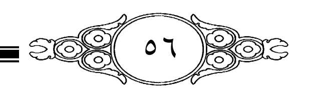
إنما يَفتِن المرأة من الرجال تحبُّبُه إليها فهي مجنونة في حُبِّ الحُبِّ؛ أي حبِّ أن يُحِبَّها الرجل، كما قالت علية بنت المهدي حكاية عن نَحيزَةِ صنفها[1]:

* تحبَّبْ فإن الحُبَّ داعيةُ الحب *

فهُنَّ يُفتنَّ بالرجال علىٰ قدر تصبِّيهم لهُنَّ وتحببهم إليهن إذا هن صدَّقنَ، وأمِنَّ الخلابة والحيلة، وما أسرع تصديقَ الفتاة الغرِّ لوحي العيون، وانخداعَها بقول الزور للود الممذوق، والحب المصنوع، بل هي فتنة لا تكاد تسلم منها العوان، التي مارست الرجال وعرفت الزمان.

---

(١) النَّحيزَة : هي الطريقة .



قرأت قصة (رواية) في امرأة كانت تدعى (فاتنةَ باريس) وكانت تهوي إليها أفئدةُ الرجال، وتمطرُها سحائبُ الأموال، فتفوز لديها آمالٌ وتخيبُ آمال، حتى إذا ما عرض لها مرضٌ حال له لونُها، وحال بين طلاب التمتع وبينها، انفضَّ من حولها الناس، إلا رجلًا واحدًا كان الحبُّ قد أخذه عن نفسه، ورانَ على عقله وحسه، ثم اختطفه من طبيعةِ الرجال، وطار به في فضاء الخيال، ولم تلبَثِ المرأة أن أفاقت من غشيةِ المرض فلم ترَ من تلك الجُمُوع إلا ذلك الرجل، فاعتقدت أنه محبٌّ لها مخلص في حُبِّه فاصطنعته لنفسها، وثابَتْ على يديه إلى رُشدِها، وهجرَتْ الرجال وهاجرَتْ معه من باريس إلى أريافها، وهُناك تزوَّجَت به ومَكَّنته من جميع ما تملك.

هذا الذي ذكرته من افتتان النساء بالتحبُّبِ والتصبي هو العلة الأولى فيما هو معروف بين الناس من ميل نساء المدن إلى الْمُتَوَرِّنينَ والْمُتطرِّسِين، وزهدُهن في أهل العلم والدين، فهُنَّ يعتقدْنَ أنَّ هؤلاء في شُغُلٍ عنهُنَّ، وأنَّ أولئك لم يُبالِغُوا في التطيُّب والتزيُّن إلا لأجلِهِنَّ، ثم صار ذلك عادةً موروثةً فيهنَّ، وقد فشَتْ هذه العادةُ السوءُ في بيوتِ الْمُترفين من أهل مصر وغيرها، حتى إن العذارى ليقْتَرِحن أنْ يُغيِّر الخاطبُ لهن زِيَّهُ العلميَّ إن كان عالمًا، وقد يكون هذا التغيير وبالًا عليهن بعدَ الزواج؛ لأنَّه يُسهِّل على صاحبِهِ الدُّخول في بُيوتِ الفِسْق التي تَخرِب بيتهما وتُوقِع بينهما.

أما أهل البادية ومن في حكمهم فإن نساءَهم لا يمِلْن إلا لمن اشتَهر بالشجاعةِ والشهامةِ والرُّجُوليَّةِ والكرمِ، وبهذه الصفات يتقرَّبُ الرجال إلىٰ النساء عندهم، ولو وُجِد في المُدن شُبَّانٌ يعرفون بهذه الصفات لما فضَّل النساء عليهنَّ أحدًا؛ فإن من صفات الفِطْرة أن تُحبَّ المرأة من الرجل ما هو من شأن الرجولية والعكس بالعكس، وهذا الذي يُحكىٰ عن نساء الأمصار من وَلَعِهنَّ بالمُخنَّثِين ومن يقرُب منهم هو من فساد الفطرة.

وقد كان من حُسن تربية النساء في بلاد الإنكليز أنَّهُن قَرُبنَ من الفطرة السليمة، فقد اقتُرِح عليهنَّ في بعض الجرائد أن يذكرنَ أحب صفات الرجال إليهن، فكان الجواب مِن أكثرِ من أجبن ناطقًا بحُبِّ صفاتِ الرُّجُوليَّةِ من الشجاعة والاستقلال والسلطة عليهن.

يقول أناسٌ: إن الحبَّ بين الزوجين هو الأساس الذي تقوم عليه جميعُ أركانِ سعادة الحياة الزوجية؛ فإذا كان قويًّا راسخًا فلا يضرُّ هذه الحياةَ ضعفُ الأركان، وإذا كان غيرَ قويٍّ فإنَّ الأركان لا تلبَثُ أن تسقُطَ، فيجب أن يؤذَن للعذارىٰ والأيامىٰ بمعاشرة العزاب علىٰ أعين أهليهن، ومراقبتهم ليتخيرنَ منهم من يبيعُهُنَّ قلبَه، ويصفيهن حبَّه، وقد سبق القول – في بحث تخيُّر الرجل للمرأة – بأن هذِه المعاشرة ليسَتْ سبيلًا موصلة إلىٰ الأمنية التي يتمنَّون، وإذا كان يعسر علىٰ الرجل أن يعرفَ قلب المرأة بمثل هذه المعاشرة التي يقصد بها

الخطبة، أفلا يكون وصولُ المرأة إلى قلب الرجل أعسرَ لا سيما إذا كانت فتاةً غرًّا؟

ونزيد هنا: أن كثرة معاشرة أفراد كل من الصنفين للآخر يُحبِّب إليهم التنقُّلَ في هذه الرياض ويزيِّنُه في قلوبهم حتى إذا ما ازدوج اثنان منهم عن حُبٍّ ثم فتر الحبُّ للملل؛ أو لما عساهُ يبدو لأحدِهما أو كليهما مما لم يكُن في الحُسْبان تحنُّ القُلُوب إلى من كانت عُرِفت بالمعاشرة وتَجنَحُ إلى التنقُّل، ولا يعسُر ذلك على من سبق له التمرُّن عليه والأنسُ به.

الحبُّ هو الركن الأول أو الأساس للسَّعادة الزوجية، وهو السُّكُون المذكور في الآية الحكيمة: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) (الروم:٢١)، أو هو علَّتُه وقد تقدم شرح ذلك فلا نعيده، ولكننا نزيدُ على ما قلنا هناك: أن دوامَ الحُبِّ وسكونَ القلب إنما يُرجى بين زوجينِ لم يتعوَّد الرجل منهما مُعاشرةَ النساءِ ولا المرأةُ معاشرةَ الرجال؛ إذا كان اختيار كل منهما للآخر على الوجه الذي بينا؛ فإن علَّةَ سكُونِ كل منهما إلى الآخر ثابتة في أصل الفطرة، وإنما يجب التخيُّر للحذر من الصفاتِ العارضة التي تُشارك الفطرة في الاستحسان أو الاستهجان، **ولا شيء أقطعُ لرابطة الزوجية وأذهبُ بسعادتها من ميل أحد الزوجين أو كل منهما إلى غير زوجِه ميلًا للمعنى الخاص بالزوجية.**

إن الحب الذي يكون للزوجين برابطة الزوجية نفسها هو الحب الذي يُرجىٰ دوامه إذا روعي في عَقْد الرابطة صحةُ الجسم والنفس والتقارب في العادات والتأدُّب بأدبِ الدين، وأهمُّ هذه الآداب عِفَّةُ الزوجين ورضى كل منها بالآخر نصيبًا له لا يفضي إلىٰ سواه، ذلك بأن النَّزْعة الطبيعيَّةَ في كُلٍّ من الصنفين إلىٰ الآخر مُبهمَة مُضطربَة في أصلِ الفطرة؛ فإذا تعينت في اثنين فأفضىٰ بعضهما إلىٰ بعض وقد وطَّنَا أنفسهما علىٰ إقامة سنة الفطرة والدين بإحصان كل منهما للآخر وعدم التطلُّع إلىٰ سواه؛ فهناك السُّكُون التام والحبُّ الخالِصُ، وليس وراء الفطرة والدين مطلع لهناءِ العيشِ وسعادةِ الحياة، ولكن هذا الإنسان يخرج عن سُنَّتِهما ليتمتع بالهناء وسعادة الحياة؛ فيضلَّ ويشقىٰ.

[الجواب عن دعوى أن الحُبَّ بين الزوجين لا يتمُّ مع تشريع الطلاق وتعدد الزوجات]:

يقولُ غيرُ المسلم: إن حب الزوجية لا يكاد يتذوَّقُ حلاوَتَه الزوجانِ المسلمان لأنَّ المرأة تكونُ مُهدَّدَةً دائمًا بأحدِ الأمرين: الطلاق أو الضرة.

ونجيبُ عن هذا القول من وجهين:

أحدهما: دفعُه بقول مثله في الزوجين النصرانيين، ومن في حُكمِهما.

وثانيهما: البحثُ فيه وتعرُّفُ حقِّه من باطِله.

أما الأول: فإن الزوجين اللذين يرىٰ أحدهما أنه مُلزم بالآخر، إلزامًا إجباريًّا جعله كالوَهَق في عُنقه، والوِقر علىٰ كاهله، فإنه يمَلُّه ويستثقِلُه فلا

تسكُن نفسُه إليه، ولا تقرُّ عينه به، ولا يخلُص ودُّه له، وإن كان قد رضي به قبل العقد انخداعًا بما ينخدعُ به الشباب، أو ذهابًا وراء الطَّمَع في مالٍ أو جاهٍ، فالمرأة تلجُ في الزَّهو والصَّلَف، وتتمادىٰ في المخيلة والسَّرَف، والرجل يتجرَّعُ مرارة الصبر ولا يكاد يُسيغه، وينشُد استقلال الرجال فلا يجدُه، وربما لجأ إلىٰ السلوة باتخاذ الأخدان، أو الاختلاف إلىٰ ذلك المكان .. إن كان، وليس هذا القولُ من تخيُّل الشعر، بل هو الحقيقة حكايةً عن شعور أهلها، فقد سمعت أحدَ فضلاء الإنكليز -وهم أحسن الأوربيين حالا في الحياة الزوجية- يقول ما مثاله: إن تحريمَ الطلاق ومنعَه يُشعر الرجل بأنه مُلزم بالمرأة، مجبُور علىٰ ودها، والتحبُّبِ إليها لا فضلَ له في ذلك، وما أعصىٰ الحبَّ والوُدَّ علىٰ الإلزام؛ كما يقول المثل (حبني غصبًا)، وإذا كان يعلم من نفسه القدرة علىٰ فراقها؛ فإنه يكون علىٰ فِطرته وأدبِه في معاملتها يشعرُ بالسُّرور والارتياحِ لاختيار المُعاملة الحَسَنة التي هي مناطُ السعادة الزوجية.

فهذا هو شعور المُهذَّبين الممنوعين من الطلاق، فما بالك بغير المهذَّبين الذين يعجِزون عن مكابرة شعورهم، وتكلُّف المحاسنة لمن يرتبط بهم؟

وللمرأة مع الفريقين شعوران مختلفان؛ أحدهما: الضعف والعجز وبها ترىٰ نفسها أسيرة للرجل، وثانيهما: أنه لا بُدَّ للرجل منها ولا قدرة له علىٰ الانفصال عنها، والأثر الطبيعي لهذين الشعورين هو الكيد من جهة والصَّلَف

والعناد من جهة أخرىٰ، ولا يقال: إن هذه فلسفةٌ لا يُصدِّقها الواقع، فإنه إن كذَّبَها في الزوجين المتشاكلين في الطباع المتناسبين بالتهذيب؛ فإنه يُصدِّقها في الأزواج الذين خانهم الحظ؛ فلم يمنحهم المشاكلةَ والتناسبَ لا سيما؛ إذا كانت المرأة عاقرًا، أو ظهرَتْ آياتُ الخيانة من أحد الزوجين أو كلٍّ منهما للآخر، ناهِيك بالمرأة العاقر عند ملك أو أمير قد جعل الحكم إرثًا في ذريته أو غني عظيم يعز عليه أن لا يكون له وارث يتمتع بماله.

وأما الوجه الثاني: وهو البحث في فَرَقِ المرأة وحَذَرِها من الطلاق أو الضرة، فقد يقال فيه: أنه يكون من أسباب تحبُّبِها إلىٰ الرجل، وعنايتها بمرضاته وأن هذا السبب للتآلف يقابِلُه في الرجل حذرُه من خسارة المال إذا أراد استبدال زوج بزوج؛ لأن الشرع يوجب عليه أن يُمتِّع المتروكة بما تنفِقُه علىٰ نفسها مُدَّةَ العِدَّة التي لا يُباح لها الزواج فيها، وهذه خسارةٌ فوق خسارة المهر، وما عساه يكون مع المرأة من متاع وأثاث وماعون، أو يكون لها من مال تُسعفه به أو تدَّخِرُه لولده، ثم إنه لابُدَّ أن يبذل للزوج الجديدة المهر اللائق بها.

وهذان السببان في حرص كل من الزوجين علىٰ التعلُّق بالآخر يدعمان سُكونَ النفس الفطريَّ في كل منهما إلىٰ الآخر.

علىٰ أن الطلاق والمُضارَّة بزواجِ أخرىٰ هو خلاف الأصل الذي عليها الأكثرون من المسلمين، وإننا لنعلَمُ أن الأكثرين من المتزوجين في بلادنا لا

يخطر في بالِ الرجل منهم، ولا المرأة أمر الطلاق أو المضارَّةِ، أعني أن الرجل لا ينويه، والمرأة لا تتوقعُه منه، وأن أكثر الذين يقع منهم الطلاق من غَوغاء المسلمين؛ فإنما يقعُ منهم علىٰ سبيل المنعِ من شيء، كأن يقولَ واحدهم: عليه الطلاق إن فعل كذا أو إن فعلت كذا ونحو ذلك، وما كان من ذلك تعليقًا حقيقيًّا علىٰ فعل المرأة - وهو الأكثر - يجعلُ الطلاق في يدها كما هو في يده، فيشتركان فيه، وقد ذهب الكثير من الأوربيين إلىٰ صحة الطلاق من كل من الزوجين، وهذا شيء منه.

ومن أئمَّة السلف من يقول بعدم وقوع الطلاق بأيمان اللَّجَاج وكُلِّ لفظٍ لا يُقصد به حلُّ عقدةِ الزوجية قصدًا صحيحًا، وعليه بعض علماء الحنابلة، ولو حرَّرَ المسلمون مسائلَ الطلاق من غير التزامِ مذهبٍ بأن يأخُذُوا من مجموع كلام الأئمة ما يُوافِق النُّصوص المنطبقة علىٰ المصلحة العامة لما كان يقع الطلاق من المسلمين إلا مثل ما يقع ممن قلدهم فيه من الإفرنج، ولعلَّه يكون في بعض البلاد الإسلامية أقلَّ منه في بعض بلاد الإفرنج بل هو الآن أقل في بعض البلاد.

نعم، لا نُنكر أن المسلمين في بلادِ مصر قد أسرفوا في الطلاق وفي التزوُّج بأكثر من واحِدة فساءت حالةُ الحياة الزوجية فيهم وفي أمثالهم ممن علىٰ شاكلتهم - وإن قلُّوا - ، وأنهم في ذلك علىٰ غير ما يحبُّ الإسلام ويرضى، كما

يعلمون في الطلاق، وكما بينا في حكم تعدد الزوجات وشرطه في المجلد الماضي، ولكن سوء هذه الحال خاصٌّ بالمسرفين من أهلها، وبمن يقرُبون منهم بما يُروِّعُون نساءهم ويُوقعون الريبَ في قلوبِهِنَّ بكثرة الحديث في التزوُّج وإظهارِ الميل إلى بعض العذارى أو الأيامى بالقول أو الفعل، وقد مَرِضت الفطرة في هؤلاء واعتلَّ مُرشدها - وهو الدين - ، حتى كان انحلالُ الرابطة الزوجية بعضَ أعراض ذلك المرض الذي فُقِد علاجُه، فهم لا يذوقُون للحياة الزوجية طَعْمًا، ولو لم يُروِّعُوا نساءهم بالطلاق والمضارة إلا أن يقيموا وجههم للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فإنَّ السعادةَ الزوجية - كغيرها من ضروب السعادة - لا تكاد تُنال إلا بمكارمِ الأخلاق ومحاسنِ الآداب التي جاء بها الدين، ولذلك قال المصلح الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » .. إلخ (رواه الترمذي والليث بن سعد) ، ومن يطلبُ السعادة بغير ذلك فهو من الخاسرين.

الركن الثاني من أركان الحياة الزوجية :
المودَّةُ بين الزَّوجَين وأُسرتيهما

تكلَّمْنا في المقالات الأربع السابقة من هذا البحث عن الركن الأول من أركان الحياة الزوجية، وهو سُكُون كلٍّ من الزوجين إلى الآخر، وبيَّنَّا أنه يتوقَّفُ على حُسْن اختيارِ كُلٍّ منهما للآخر، وهذا الرُّكنُ الخاصُّ بالزوجين عليه تُبنى سعادَتُهما وهناءُ معيشتهما، وتحقُّقُه شرط لتحقق الركنين الآخرين، أو كمالهما، وهما المودة و الرَّحْمة ، وبتحقُّق الأركان الثلاثة تكمُل فائدة هذه الحياة الفائدَةَ التي أرشدنا الله تعالى إلى طلبِها منه بقوله في صفات المؤمنين: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا) (الفرقان: ٧٤) .

أما الركن الثاني - وهو المودة - فليس خاصًّا بالزوجين؛ لأن المودَّة تصلُ بين عشيرتيهما بما تصلُ به بينهما، ولذلك لم يقُل (لتسكنوا إليها وتودوها) بل قال: (وجعل بينكم مودة) (الروم: ٢١)، والخطابُ للناس لا للأزواج خاصَّةً؛ أي أنَّهُ جعل من مُقتضى الفِطْرة البشرِيَّةِ التَّوادَّ بينكُم بسبب الزوجيَّةِ بين الزوجين، ومن يتَّصِلُ بهما بلُحْمَة القرابة والنسب، كما هو معروف بالاختبار فيمن سلِمَت فطرَتُهم من الفساد، وعرَفُوا قيمةَ الحياةِ الاجتماعيَّة،

فعاشُوا عيشَةَ الاجتماع لا عيشَةَ الأفراد، وما زال البشرُ يعدُّون المُصاهرة من أسباب العصبيَّةِ بين البيوت والعشائر والقبائل، بل نرىٰ الأمراء والملوك يحاولون بمُصاهرة بعضهم بعضًا التوادَّ والتناصُرَ بين دولهم، أو تخفيفَ العداء والتنافرِ بين أممهم، حتىٰ إنهم ينبذون لذلك مذاهبهم الدينية، كما فعلت الأميرة الجرمانية التي تزوج بها قيصر روسيا، فهذه سُنَّة من سُنن الفطرة عرَفَها البدو والحضر، وجرىٰ عليها أدنىٰ القبائل همجية، وأعلىٰ الشعوب مدنية، وتنكَّبَها أناس مُذبذبون كاد يخرج بهم فساد الفطرة عن البشرية.

نرىٰ ونسمع في هؤلاء الذين خُلِقُوا علىٰ صورة الإنسان من التخاصم والتنازع مع أصهارهم وأختانهم ما لا نرىٰ نظيره، ولا نسمعُ بمثله في أهل الأضغان الموروثة والأحقادِ المتسلسلة، يرىٰ أحدُهم نعمةَ الآخر قذىً في عينيه وحرَجًا في صدره، ويعدُّ شرفَه إذا ارتفع خافضًا لقدره، فهو أنكىٰ حاسديه، وأنكأُ جارحيه، وأولُّ المتربِّصين للوثبة عليه.

لم يقفّ تأثيرُ اعتلالِ الفطرة في نفوس هؤلاء عند تنكيثِ المفتول، وتشتيتِ الململوم وتقطيع الموصول، بل أوغل في النفس إلىٰ مواضع الشعور بالحاجة إلىٰ الاعتصام، والإحساس برزايا الانفصام، فتخدرت الأعصاب، وانطمست البصائر والألباب، وانتكس الطبع، وانعكس الوضع، فصارت أسباب المودة والالتئام، عِلَلًا للتباغض والانقسام، وانقلبت معارج الشرف

والرفعة مدارج للتسفل والضَّعَة، وأمسى ما يُكتسب لأجله يُكتسب به، وما يتعزَّزُ به يعتزُّ عليه، ولا يعتدُّ بشيء من هذا خروجًا عن سنن الفطرة، ولا اعتداء لحدود الشريعة، وإنما يحسب من أمور الحزم، وطرق القيام بالمصالح.

لو أحبَّ الأزواج أنفسهم حُبًّا صادقًا وسكن بعضهم إلى بعض ذلك السكون الطبيعي لوَادَّ كل منهما الآخر ووادَّ لأجله أهلَه وعشيرتَه بلا تكلُّفٍ ولا تعمُّل، وأحسَّ بأنَّ قوَّتَهم قوةٌ له، وشرَفهم مزيدٌ في شرفه، وكثرةَ مالهم زيادةٌ في نعم الله تعالى عليه.

[المصير إلى التودُّد عند العجزِ عن حُصول الود، وإلى الافتراق بإحسان عند العجزِ عن التودُّد]:

لو عرَفَ الأزواج معنى الزوجيَّةِ وقيمَتها، واتفق أن كان كل منهما على غير ما يُحبُّ الآخر ويهوى؛ فلم تسكن إليه نفسه ذلك السكون المطلوب = لتودَّدَ كلٌّ منهما للآخر تودُّدًا لعله يُصيب بالتكلف والصَّنعَة بعضَ ما فاته بالسجية والفطرة؛ فإن التودُّد مودة متكلفة أو صورة للود الحقيقي؛ فله جميع فوائد المَودَّة الصُّوريَّة وإنما ينقصه روحها، وهو ما فيها أريحية النفس وأُنسُها بالفضيلة ولذتها واغتباطها بها، وقد ينتهي التودُّدُ بشيء من هذا، ومن فاته كمال المنفعة بشيء فليس من الرأي ولا الكياسة أن يفوته كل جزء من أجزائه، وكل أثر من أثاره، وهو قادر على إدراكه.

فإن بلغ النفور في قلبي الزوجين مبلغًا يعزُّ معه التودُّد ويتعذَّرُ التجمُّل؛ فالواجب أن يتفرِقَا بالمعروف والإحسان كما اجتمعا بهذا القصد؛ لأنهما تحققا حينئذ أنهما لا يقيمان حدود الله تعالىٰ (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) (النساء: ١٣٠) .

من المودَّةِ: أن يُحبَّ كلٌّ من الزوجين من يحبُّ الآخر من أهله وعشيرته وأصدقائه؛ فيُسَرُّ لسُرورهم، ويستاءُ لاستيائهم، ويتمنَّىٰ لهم الخيرَ والنعمة، ويقومُ بأداء حقوقهم كما جرىٰ من العرف بين أمثالهم في ذلك، والتودُّد هو عبارة عن هذا الأمر الأخير الذي هو عمل اختياري دون ما قبله؛ لأنه من عمل القلب، وهو شعور اضطراري دون ما قبله؛ لأنه من عملِ القلب، وهو شعور اضطراري يملك النفوس المستعدة له؛ إذا هي آنست من هو أهله.

النفوسُ المُستعدَّةُ للودِّ الصحيح، والحبِّ الخالِص: هي النُّفُوس الزكيَّةُ التي آوىٰ حُسْن التربية بينها إلىٰ سَلامَة الفطرة، والنُّفُوس المستأهِلَة لذلك هي النُّفُوس المستعدَّةُ له؛ فالمحبَّةُ والمودَّةُ من ثمرات المُشاكلة في السجايا والصِّفات النفسية الفاضلة، وأما المشاركة في الصفات الرديئة والسجايا الخسيسة؛ فهي لا تثمر حُبًّا خالصًا، ووِدَادًا صادقًا، ولكنها تثمر تودُّدًا يَقصِد به كلٌّ من المتشاكلين الاستفادة من الآخر، والتعاون معه علىٰ المقصد الذي وجَّهَهُما إليه فسادُ الطبع؛ فإذا أحسَّ بالاستغناء عنه أو يظفَرُ بمن يقوم مقامه فيما توادَّا

لأجله، ويكون الربح منه أكثر أو المكافأة له أقل؛ فلا يلبث أن يتبدَّلَه به جَذِلًا مسرورًا.

فأصحاب الأخلاق الفاسدة محرُومُون من مَلَكة المودَّة الصحيحة، وهم في تودُّدِهم تُجَّارٌ مماكِسون حتىٰ إن فساد الفطرة يبلغ منهم أن يتَّجِرُوا بعقدِ الزوجية، ويعتدوا أزواجهم من سلع التجارة -كما قدمنا في مبحث اختيار الأزواج- .

من التَّوَدُّد ما هو رذيلة، وهو تودد الشُطَّار العَيَّارين الذي كشفنا عن حقيقة أمرهم آنفًا، ومنه ما هو فضيلة، وهو ما يُقصد به أداء الحقوق المعروفة للخُلَطاء والعشراء، وتكلُّف القيام بآثار المودة كراهة الحرمان من خيرها الظاهر والباطن معًا، ورجاء أن يصير التودُّدُ وُدًّا، والتحبُّبُ حُبًّا؛ فقد عُلِم بالتَّجرِبة أن تَكرار العمل بأثر خلق من الأخلاق تكلُّفًا قد ينتهي بأن يصير مَلَكة، كما ورد في الحديث (والحلم بالتحلم) ، قالت علية بنت المهدي:

تحبب فإن الحب داعية الحب

وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وهذا النوع من التودد هو الذي نأمر به من تزوَّجَا في أنفسهما سُكونًا يبعث كُلًا منهما علىٰ مَودَّةِ الآخر ظاهرًا وبَاطِنًا، وهو ضربٌ من ضُرُوب التربية القويمة، إلا أولو العزم؛ لأنَّ الجاهلَ بعلم النفس وأخلاقها، والشريعة

وآدابها، يقوده شعورُه علىٰ غير هدىً، حتىٰ يهوي به في مهاوي الردىٰ، فإن كان زكي الطبع، سليم القلب، صبر علىٰ تجرُّع الغُصص، وتحمل المَضض، من تحمُّل زوجٍ لا يأنس به، وقرين لا تسكن نفسه إليه، حتىٰ يقتله الصبر، أو يخرج به إلىٰ الفساد والنكر، وإن كان شرسًا شكسًا؛ كانت حياته مع الزوج الآخر في تشاكُسٍ وتعاسر، وتنافُسٍ وتنافر، وأما العالِم فإذا ابتلي بزوجٍ لا تسكن إليه النفس، ولا يخلص له الود، فكان العدو الذي ما من صداقته بُدٌّ، فإنه يتكلَّفُ إظهار صداقَتِه، وإخفاءَ مقتِه وكراهَتِه، ليَسْلم من سوء المعاشرة، ويستظهر علىٰ آفات المنافرة، وإذا كان واسعَ العلم في تربية النفوس، وأثر المعاملة في تقلُّب القلوب، صادقَ الإرادة في تربية نفسه، قويَّ العزيمة في تأدِيبِ وجدانه وحِسِّه، فإنَّه يطمَعُ في أن يكون التودُّد وُدًّا، والتطبُّع طبعًا، ويعطي ما يطمع وينال ما يريد، ومصداق هذا واضح في أهل العلم، ومصداق ما قبله ظاهرٌ في أهل الجهل.

لك أن تقولَ: إننا رأينا من المُتعلِّمين والمُتعلِّمات في هذه البلاد أزواجًا كان يُرجَىٰ أن يكونوا حجة للعلم علىٰ الجهل بالعيشة الراضية، وقَصْر كلٍّ من الزوجين طرفَه علىٰ الآخر، وقناعتِه بالاختصاص به لكمال سكون نفسه إليه، وإخلاصه في مودته ومحبته، أو التودُّد إليه ومجاملته، فبدا للناس منهم ما لم يكونوا يحتسبون، فلم تكد تنتهي أيام أعرَاسِهم وليالي أفراحهم؛ إلا وقد

نجَمَت بينهم قرونُ الفتنة، ووقع عليهم طائر الشقاق، وصاح بهم غُرَاب الافتراق، وياليته كان شقاقًا بكتمان، وتسريحًا بإحسان، وإنما هداهم إلى أن يكيد أحدهم للآخر في المحاكم الشرعية، ومنهم من قذَفَ بهم التخاصم إلى المحاكم الأهلية.

ولي أن أجيبَ بأنك قد نسيتَ أنني أعني بالعلم علمَ النفس وأخلاقها، وعلمَ الشريعة وآدابها، ومن تحدَّثُ عنهم لا يعرفون من ذلك شيئًا إلا قليلًا من الألفاظ المحفوظة، والكلمات المتداولة، التي يُمليها الخيال، ويلُوكُها اللسان، وليس لها في النفس منشأٌ يُعرف، ولا في الأعمال أثرٌ يُوصف، كما هو شأنُ الأُمَّةِ في إبَّان موتِها توجدُ عندها صورٌ من العلوم لا تَطلب بها غايتَها، وبقايا من الرُّسُوم لا تجني منها فائدَتَها.

[أثر المودَّةِ بين الزوجين في صلاح الأمة] :

سُكون الزوج إلى الزوج سببٌ من أسباب سعادةِ الزوجين، وهناءِ معيشتهما خاصٌّ بهما لا يشاركهما فيه أحد من الأقربين والمحبين، وأما المودَّة بينهما فهي من أسباب سعادة عشيرتهما أيضًا؛ لأنها مُتعدِّية؛ فهي مَبعث التناصر والتوازر والتعاضد والتساند، وبهذا تكون سببًا من أسباب سعادة الأمة المؤلَّفَة من العشائر المؤلَّفَة من الأزواج، فهذا التأليفُ هو الذي يتكوَّن من مزاج الأمة، فما يكون عليه من اعتدال وكمال يكون كمالًا في بنية الأمة وقرة عين

لمجموعها وما يطرأ عليه من فسادٍ واعتلال يكون مرضًا للأمة يورِدُها موارد الهلكة.

إن الإنسانَ ليشعر بحاجته في كمالِه إلىٰ الأُمَّة وبحاجتها إليه في ذلك علىٰ قدر قُوَّةِ معنىٰ الإنسانية فيه؛ فأدنىٰ أفراد الإنسان حظًّا من الإنسانية لا يشعرُ بحاجَتِه إلىٰ أحدٍ ولا بحاجة أحد إليه إلا من تقومُ بهم شؤونُ حياته الشخصية، فهو ينظر إلىٰ زوجِه في البيت بالعين التي ينظُر بها إلىٰ شريكه في السُّوق أو مُعامِلِه في الحقل، وهي عينُ المبادلة في المنفعة وطلبِ الربح؛ فإذا قدر علىٰ استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ يكون به حظُّه من التمتُّع أوفر، أو مكافأته له بالنفقة وغيرها أقل، فهو يُقدِم علىٰ ذلك فَرِحًا راضيًا، كما يستبدل عاملًا بعامل، وشريكًا بشريك، وأجيرًا بأجير إذا رأىٰ أن الجديد أنفعُ له من القديم.

فمثل هذا لا يمتدُّ وجودُه إلىٰ ما وراء مُحيط جسمه، فلا يتحقَّقُ فيه معنىٰ الزوجية الذي هو عبارة عن حقيقة مؤلَّفَة، فردين يعيشان برُوحٍ واحدة، وإذا لم يصل في سعة الوجود إلىٰ أن يكون زوجًا أعلىٰ من حياته الفردية، ووجودًا أوسعَ من وجودِه الشخصي، وإذا صغر عن هذا فإنه يكون أصغر وأحقر من أن يشعر بمعنىٰ الوجود القومي والحياة الملية؛ التي ترفع صاحبها إلىٰ الشعور بأن كل عمل من أعمال يجب أن يكون نافعًا لأمة عظيمة، وأن مجموع أعمال العاملين في هذه الأمة يلحَقُه شرفُه إذا كان شريفًا، وتصيبُه خِسَّتُه إذا كان

خسيسًا، وهذا هو شأنُ الإنسان الكامل، فمَودَّةُ الأهل هي أول مجالي الإنسانية الكاملة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» رواه الترمذي من حديث عائشة وصححه، ورواه أيضا مصحَّحًا من حديث أبي هريرة بلفظ: «خياركم خياركم لنسائهم»، وروىٰ أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله» .

[الممازحة والملاعبة بين الزوجين من أسباب المودة ولا ينافي المهابة والاحتشام] :

ومن المودَّة بين الزوجين: الممازحة والملاعبة، ومن الرجال من يرىٰ أن مُفاكهةَ المرأة ومُداعبتَها مما يَذهب بمهابتِهَا إياه، واحتشامِهَا له، وينسىٰ أن ترك ذلك يَذهب بأُنسها به، وسكونِها إليه، وحُبِّها إياه، وإن الحبَّ ليغني عن المهابة والاحتشام، إن صحَّ أنَّ المُمازحَةَ والمُلاعَبَة والمُفاكَهَة والمُداعبةَ لا تتفق معهما، وما ذلك بصحيح؛ فإن أعظم الرجال قدرًا من الأنبياء والحكماء والملوك المُهذَّبين كانوا يُرضون نسائهم في البيوت، ولا يتخونُ ذلك من مهابتهم وإجلالهم شيئًا، كان الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم يُمازِح نساءَه ويُداعِبُهن، وقال لجابر رضي الله عنه حين استأذنه في نكاحِ الثَّيِّب : «هلا بِكْرًا تلاعِبُها وتلاعِبُك»، والحديث في الصحيحين، وكذلك كان يفعلُ صلىٰ الله

عليه وسلم حتى رووا أنه كان يسابق عائشة في العدو - الجري الشديد- سابقها فسبقته ثم سابقها فسبقها، فقال: «هذه بتلك»، والحديث عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وسنده صحيح.

ويؤثَر عن عمر أنه كان يقول: «كل امرئ في بيته صبي»، وفي الإحياء: وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته: «ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا».

وللدُّعابة في البيت حدٌّ من تجاوَزَه ذهبت حشمَتُه، ومن قصَّرَ فيه ثقُلت عِشرته، واستثقالُ المرأةِ للرجل مَدرجة البلاء، ومَدعاة الشقاء.

[الغَيرَةُ المعتدلة من أسباب المودة بين الزوجين :]

ومن المودَّةِ بين الزوجين الاعتدالُ في الغَيرة، بحيثُ تتحامى فيها الظِّنَّة والريبة، فينبغي للرجل أن يؤذَن امرأته بأوقاتِه خارج البيت أين يصرِفُها؛ فإنَّ ذلك يُعلي مَكانَهُ من قلبها، ويمكِّنُ الثقةَ به من نفسها، ويحولُ بينها وبين وسوسة الشيطان، فلا تَتَّهِمُه باتِّخَاذ الأخدان، ويكون أعونَ له على إلزامِهَا القرارَ في البيت وتحرِّي رضاه في الخروج عند الحاجة إليه.

وإن كثيرًا من الرجال ليشاقُّون النساء بالمُشادَّةِ في الخروج حتى يبتغُوا بهن الريبة؛ فيوقِعُوهنَّ فيها، ومنهم الذين يَسلِسون لهنَّ، أو يُلقُون حِبالِهنَّ على غوارِبهنَّ فيسرحنَ ويمرحنَ ويتبرَّجنَ تبرُّج الجاهليةِ الأولى حتى يكونَ البيتُ

في نظرهنِّ كالسجن، وإن مَلل المرأة من البيت وكراهتها له كمَلل التاجر من محل تجارته، والقاضي من محكمته، والأمير من إمارته، وكراهةِ كل عامل من عمله = سببٌ للضياع ومِعول للخراب.

ومن المودة بين الزوجين: أن لا تخرُج المرأةُ من دارها إلا بإذن الرجل ورضاه، وأن لا تُكلِّفَه من النفقة والزينة فوق ما يليق بحاله في الثروة، وقد مضت التجارب بأن العهد إلى النساء بالنفقة يبعثهن على الاقتصاد، ويغريهن بالتوفير.

ارجِعْ في سائر ما يطلب من المرأة لزوجها وولدها في المقالات السابقة؛ النهوض بها مع الغبطة والسرور هو أثر المودة المطلوبة.

لو لم تكن المودَّةُ بين عشيرتي الزوجين مما يُقصَد بالزَّواج قصدًا مستقِلًا لكانت مما يُقصَد بالتَّبَع لتوثيق رابِطَة الزوجيَّةِ بين الزوجين؛ فإنَّ احترامَ كلٍّ منهما لقرابة الآخر مزيدٌ في احترامه له، ولعل الذين يختارون الأزواج لمكان البيوت والعشائر أكثرُ من الذين يختارون لمجرد الاستحسان الذاتي، ولا تكادُ تجد في العناصر الكريمة من لا يبالي بالمنبت، وإنما أولئك تُحُوتُ الناس [1] وعبيد الشهوات.

---

(١) تحوت الناس: أسافلهم وأراذلهم.

إن المُشاكلَةَ بين الزوجين في السَّجايا والعادات كافيةٌ مع سُكون الزوجية لتحقُّق المودَّة بينهما، ولكنَّ مَكان عشيرتيهما قد يُفسد مودَّةَ بينِهما؛ إذا كانت غير مُرضِيةٍ لهم، وقد يشفع لما ينقصهما من سكون النفس، ومودة القلب لحلول عاطفة الاحترام القومي محلَّ عاطفة المُشاكَلَةِ في بعض الطباع؛ فإن لم يأت احترامُ العشيرة بالمَودَّةِ فهو لا يقصُر عن الإتيان بالتوَدُّد وحُسن المعاشرة.

سَلْ قُضاةَ المحاكم الشرعية ووكلاء الدعاوىٰ فيها، يخبروك عن أرباب التخاصم من الأزواج أن أكثرهم من الشُّذَّاذ الذين ليس لهم عشائرُ معروفة، أو من البيوت التي أفسدَها التَّرَف والتَّربية السوءىٰ، حتىٰ كان أهل الزوجين هم الذين يحلُّون ميثاقَ الزوجية بينهما، ويقطَعُون ما أمر الله به أن يُوصَل، وهم يحسَبُون أنَّهم يحسنون صنعًا بمُضارَّة الرجل بامرأته، والمرأة ببعلِهَا باسم المحافظة علىٰ الحقوق ورعاية الشرف، وما الشرف إلا في الوفاق والوئام، والوِدَاد والالتئام.

يقع مثل هذا مع فساد الفطرة من الذين عزموا عُقدَة المصاهرة علىٰ رغبة وتحيز، فما بال أولئك الذين يمتون إلىٰ هذا العقد بوسائل الرهبة أو الحيلة أو يهجمون علىٰ البيوت؛ فيأتُونَهَا من ظُهُورها لا من أبوابها، ويمزِّقُون سِتَارَها ويهتِكُون حجابها، وينتزعون الخرائد من أكنافها، والفرائِدَ من أصدَافها، ويُفرِّقُون بين الأولاد والوالدين، ويوقِعُون العداوةَ والبغضاء بين الأقربين،

ماذا يكون أثرُهم في البيوت التي تتكوَّنُ منها الأمة وفي الأمة التي تتكوَّنُ من البيوت؟ لا يغيب عن عاقل أن شرَّهُم مستطير، وأن ما يفعلونه فِتنة في الأرض وفسادٌ كبير.

الركن الثالث من أركان الحياة الزوجية : الرَّحْمة بين الزوجين وذريتهما

تقدم أن الطَّورَ الأول من أطوار هذه الحياة خاصٌّ بالزوجين، وهو سكون نفس كل منهما إلى الآخر، ذلك السُّكُون الذي لا نظير له بين سائر المتحابِّينَ لغير اتِّحادِ الزَّوجِيَّة، وهو وِجدَانٌ من وجداناتِ النفس لا يُعرَف كُنْهُه إلا الزَّوجَان اللَّذَان أحسنَا الاختيارَ فتعارفَ الرُّوحان، وتمازج النَّفسان، فكانا حقيقةً واحدةً لها صُورَتان، وأنَّ الطَّور الثاني يُشاركُهما فيه غيرُهما، وهو الوُدُّ الذي تُحدِثه المصاهرة بين عشيرتي الزوجين الوَدِيدين، ونبيِّنُ في هذه المقالةِ أنَّ الطورَ الثالثَ مُشترك بين الزوجين وما يُرزقان من الولَد.

الرَّحْمة ضربٌ من ضُرُوب وجدانِ النفس، له مَثارٌ في النفس غير مَثار السكونِ إلى المحبوب والأُنسِ به، وغير مَثار مَودَّةِ المُشارك في المَعيشة، والمشابِك في المصلحة، ذلك الذي يُثيرُ وجدان الرَّحْمة ، ويهُزُّ عاطفة الرأفة والشفقة، هو ما ترى في غيرِكَ من ضعفٍ أو سُقم، أو حاجةٍ يصحبها أَلَمٌ، وهذا هو مِلاك الحياة الزوجية عند حدوث الأمراض والأدواء، وعندما تذوي غصن الشبيبة هاتيك الأهواء، ولو لم يودِع الله تعالى الفطرةَ إلا سُكُونَ الزَّوجِ لملامسة الزوج، ومودة كل منهما للآخر للتعاون على المصالح والمنافع

التي هو قِوام معيشتهما؛ لكانت الحياة الزوجية نعيمًا في الشَّبَاب بُؤسًا في الشَّيخُوخة، سعادةً في السرَّاء، شقاوةً في الضرَّاء، يتمَتَّع كلٌّ من الزوجين بصحةِ الآخر ونشاطِه، وبسطَتِه واغتباطِه، حتى إذا لَسَعت أحدها حُمَة الضر، أو عَضَّتْه نابُ الفقر، أو نالت السن من فتائه وجِدَته ما لم تنل الناب من ثرائه وجدَّتِه، استحال سُكون الآخر إليه اضطرابًا منه، وانقلبت مودته إياه مقاطعةً له، ويالذاك لو كان من نقصٍ عظيم يُنافي خَلْق الإنسانِ في أحسنِ تقويم.

لا تحسبنَّ هؤلاء الذين يملُّون أزواجهم عند السُّقم أو الهرم فلا يرحمون لهنَّ ضعفًا، واللواتي يملَلْن أزواجهُنَّ في الكبر أو الفقر فلا يحفظنَ لهم عهدًا = قد سلمت لهم فطرة هذا النوع الكريم الذي خلقه الله في أحسن تقويم، كلا، بل أفسدت الشَّهواتُ فطرَتَهم، ونكَّسَتِ الأهواءُ خِلْقتهم، فلهم من الإنسان صورتُه وشكلُه، لا روحُه ولا عقلُه، ولا كرمُه ولا فضلُه، بل صاروا أعدى للإنسان من الشيطان وأضرى بمضرَّتِه من سِبَاع الحيوان، وأيُّ خير يرجُوه الإنسانُ من نوعه، أو الأُمَّة في خاصتها، ممن لا خيرَ فيه لمن انفصل لأجله عن أمه وأبيه، وأخته وأخيه وعشيرته التي تؤويه، واتَّصل به على عهد الله وميثاقه في الفطرة البشرية، والشريعة السماوية، فكان معه روحًا حلت في جسمين، وهيولي تجلت في صورتين، ثم لم يلبث بعد فراغِ حَظِّه منه، أن انفَصَل عنهُ، لا يرحمُ له ضعفَه، ولا يعطِفُ عليه عطفَه، أليس المُشارِك له في النوع والصنف،

أولى بهذه القسوة وهذا العنف؟ بلى، إن هؤلاء الذين استعبدَتهم الأَثَرة، واسترقَّتهُم (الأنانِيَّة) أعداءُ الأهل والأقربين بل أعداءُ البَشَر كلِّهم أجمعين.

هذا الضربُ من فسادِ الفِطرة هو في الرجال أكثرُ منه في النساء، والعدوى فيه تفعل فعلَهَا في البيوت؛ تسيرُ سيرَ البريد من بيت إلى آخر، ولا آسٍ يأسُو هذا المرض الذي كاد يكون وباءً، **وأنى يُوجد الأُساة أو تنتفع الأمة بمن عساه يوجد منهم وطبُّ القلوب مهجور، وأهله كأهل طبِّ الأبدان، منهم العالم العامل، ومنهم الدجَّال المحتال، وقد مضت سنة الكون بأن الأمة في طور ضعفها وضَعَتِها تدِين للدَّجَّالِين المُحتالين، وتنفِرُ من العارفين الناصحين،** لذا ترى مُدَّعي طبَّ الأرواح عندنا من أكبر الأعوان على تخريبِ البيوت، فمنهم الذين جعلوا طبَّ القلوب الظاهر وسيلةً لإعانة كل زوج على قهرِ الآخر بالتقاضي كبعض القضاة والمحامين، ومنهم الذين جعلوا طبَّها الباطنَ ذريعةً إلى استحلالِ المحرمات بالفعل اعتمادًا على شفاعة الشافعين، والانتساب بالقول إلى المشايخ الميتين.

فطرَ الله تعالى قلوبَ البشر على الرَّحْمة ليتراحَمُوا فلا يهلِك فيهم العاجز والضعيف، وكلُّ أحدٍ عُرضة لاستحقاق الرَّحْمة في يوم من الأيام، وجعلَ سبحانه حظَّ الوالدين والزوجين من الرَّحْمة أرجحَ ليُعنى بكُلِّ فردٍ من الناس أقربُ الناس منه عند شدَّة الحاجَة إلى العناية والكفالة؛ فالزوجُ لزَوجِه عند

الضَّعف في المرَض أو الكبر، كالوالدين لولَدِهما عند ضَعْفه في الصغر، بل تجدُ المرأةَ أرحمَ ببعلِهَا في مرضه أو كبره من أُمِّه - لو وُجِدت-، وتجدُ الرَّجُل أرحمَ بسَكَنِه في مرضها أو كِبَرها من أبيها - لو وُجِد - إذا كانتِ الفطرة سليمة، فإن لم يكن كلٌّ من الزوجين أرحمَ بالآخر في كِبَره من والديه فإنه يقوم مقامهما، إذ لا يضعُف كلٌّ من الزوجين ويحتاج إلى الرَّحْمة إلا بعدَ موتِ الوالدين في الغالب، فإن مَرِض وهما في صحتهما فإنهما يكونان بعيدَين عنه لا يسهُل عليهما ترك بيتهما ومن عساه يكون فيه من مُحتَاج إلى رحمتهما لأجل لِزَام ولدِهما الكبيرِ المُتزوِّج، فظهَر أن كلا من الزوجين في حاجة إلى رحمة الآخر به عند ضعفِه لا يقومُ بها سواه من الأقربين أو المستأجَرين مقامُه فيها.

ليست الأريحيةُ في سُكون الزوج إلى زوجه عندَ داعيةِ المسيس، ولا أريحيةُ مودَّتِه ومودَّة أهله في المعاشرة والمعاملة بأكبرَ من الأريحية التي يجدها لرحمته به وحنوِّه عليه في حال الضعف، فإن الإنسانَ يشعر بالارتياح من عناية غيرِه به عندَ الحاجة ما لا يشعُر بها عند الاستغناء، فالضعفاء والمرضى والمملقون يكبرون من أمر الوفاء والاعتناء، ما لا يكادُ يشعر به الأقوياء والأصحاء والأغنياء (إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى) (العلق: ٦-٧) ، وإن من طغيانه أن يعتَقِد أن كلَّ من يحفل به ويعني بشأنه فإنما يفعل ذلك لأجل نفسه، لا لأجله هو؛ لأن الناس في حاجة إليه، وهو ليس في حاجة

إليهم، وقد يبلغ به الطغيان إلى إدخال زوجه وولده في هذا الحكم، فإذا تحول مد طغيانِه إلى جُزُر بالمرض أو الحاجة؛ رقَّ قلبُه ولطفَ شعوره، وكان أعدل في الحكم وأقرب إلى عرفان قدر النعمة والشكر عليها.

يُسمُّون مسألَةَ الزَّوَاج مسألةَ (مُستقبل الإنْسَان)، وإن كنتَ تجدُ في الأغرار من لا يُفكِّر عند إرادَة التزوُّج بمُستقبله مع من يختارُه زوجًا له؛ فإنك لا تكادُ تجدُ من لا يعبأ بهذا المستقبل إذا ذُكِّر به فأعمَلَ فكرَهُ فيه إلا ما يكُون من بعض المُترَفين إذا فُتِن أحدُهم بجمال امرأة يودُّ أن يقضيَ منها وطَرًا، ثم لا يُبَالي ما يكونُ بعد ذلك، ومثل هذا إذا ملَّ طلَّق، ولا تكاد تجدُ امرأةً ترضى بالتزوُّج بمثلِه، على أنَّ هذا النوع من الازدواج هو أشبهُ بالاستئجَارِ أو البِغَاء منهُ بالزواج، **وإنَّما الزواجُ الشَّرعي الطبيعيُّ ما كان عن إرادةِ الاشتراك في الحياة مُدَّةَ الحياة، وإلا كان مُتعةً بالغِشِّ والمخادعة**، ولا أرى الشيعة يدينُون بجواز هذا الضَّرب من المتعة؛ لأن الغشَّ مُحرَّم بالإجماع؛ لا خلاف في ذلك بين سني وشيعي.

وإذا كانت مسألةُ الزواج هي أعظمُ مسائل مُستقبل الإنسانِ الخاصَّة، أفلا يكونُ من أعظمِ الشقاء أن يبدأ أمر الزوجين بالسكون والود في السراء، وينتهي بالاضطراب والتخاذل في الضراء؟ يشكرُ أحد الزوجين للآخر عند

إمكان استبدالِه أو الاستغناء عنه ويكفُرُه أحوجَ ما كان إليه! أيُّ عاقل يرضى بهذه الخاتمة السُؤىٰ إذا علم بها أو ظن أن ستكون؟

لا شيءَ يُخفِّف أثقالَ الفقر وأوزارَه عن كاهلِ الرَّجُل يتحمَّلُه مثلَ المرأة التي ترحمُه في فقره، فتُظهر له الرضا والقناعة ولا تُكلِّفه ما تعلم أن يدَه لا تنبسِطُ له، فما بالُك إذا كانت ذاتَ فضلٍ تواسيه به.

ولا شيء يُعزِّي الإنسانَ عن مُصابِه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل والرجل للمرأة إذا ظهرت عاطفة الرَّحْمة في أكمل مظاهرها فشعر المُصَاب بأنَّ له نفسًا أُخرىٰ تمدُّه في القُوَّة علىٰ مُدافعة هذه العوارض التي لا يسلمُ منها البشر، واعكس الحكم في القضيتين، يتجلىٰ لك وجه الصواب في الصورتين.

إذا كان لركُن الزوجيَّة الأول - وهو السكون المعهود - تأثيرٌ في الثاني، وهو المودَّة فلا ريبَ أنَّ الرُّكنَ الثالث - وهو الرَّحْمة - يكون أثرًا للرُّكنين قبلَه أو فَرعًا لهما، **فعلى قدر السُّكُون والمودَّة بين الزوجين في النَّعماء، تكون الرَّحْمة بينهما في البلاء**؛ لأنَّ مُصاب الوَدِيد المحبوبِ يُعيد للنفس ذكرىٰ جميعِ حسناته، وطيبَ أيامه وأوقاته، ويمثلها في أبهىٰ حُلَلها، ويعرِضُها علىٰ النَّفس في أجمل معارِضِها (المعرض: هو الثوب الذي تجلىٰ فيه العروس) ، يُخيَّل إلىٰ المحب أن تلكَ الحسناتِ واللذَّات قد اجتمعت، وأن المُصاب يحاول أن يُشتِّت شملَها ويقطعَ حبلها، فهو يواثب لذاتِه المجتمعة في شخصِ محبوبه، ويحاوِلُ سلبَ

منافعِه باغتيال نفسٍ وديدِه، **فمن أراد أن يُحسِّن مستقبله في هذه الحياة فليجتهدْ أولا في حُسن اختيار الزوج، ثم ليُخلِص له المودَّة ثانيًا ليتمتع بوفائه أولًا وآخرًا وباطنًا وظاهرًا.**

ما أجهلَ الرجل يسيء معاشرةَ امرأته! وما أحمق المرأة تسيء معاشرة بعلِهَا! يسيءُ أحدهما إلىٰ نفسه من حيث يسيءُ إلىٰ الآخر فهو مغبونٌ غالبًا ومغلُوبًا، **وما رأيت ذنبًا عقوبَتُه فيه كذنبِ إساءة الزوجِ إلى الزوجِ**، بل أرىٰ العذاب يضاعف في الدنيا علىٰ ذنب الزوجية فيكون زوجًا لا فردًا، وكلُّ ذنبٍ له عُقوبة في النفس أو فيما يتعلق بالنفس تكون أثرًا طبيعيًّا له، إلا ذنب أحد الزوجين في مُغاضبة الآخر فإنه هو نفسُه عقُوبةٌ لنفس مقترِفِه يؤلِمُها ويمضُّها ثم إنه يلدُ لها عُقوبةً أو عقوباتٍ أخرىٰ تكونُ أثرًا له كسائر الذنوب، ولكنَّ أثرَ ذنب الزوجية ليس كآثار غيره؛ لأنه هو ليس كغيره فكبر الآثارِ وصِغَرُها تابعٌ لحال المؤثِّرات.

أنهاك أيها المِعزَابَة [1] أن تُسارع إلى الزواج مهما تمادتْ بك العُزُوبة إلا بعد حُسنِ الاختيار، وأنهاك أَيَّتُها الأَيِّم وأولياءَك أن تجيبوا خاطبًا إلا بعد التروي في الاختيار، وأعظكما إذا أنتما تزوجتما فلم تجدا ذلك السُكُونَ النفسيَّ كاملا، وذلك الوُدَّ الطبيعي مواصلًا، أن يتحبَّبَ كلٌّ منكما ويتودَّد إلى الآخرِ ما

---

(١) المعزابة : الذي طالت عزوبته .



استطاع، ويجعلَ أكبرَ همِّه في هِبَته واستيهابه قلبَه لتحسن الحال، ويرجى حسن العاقبة في المآل، فإن عجَزَا عن ذلك بعد الإخلاص في طلبه والجد في إدراكه، فليتفرقا يغن الله كلا من سعته، وكان الله عليمًا حكيمًا.

إذا رزق الله الزوجين الولدَ تنمُو به بينهما المودة و الرَّحْمة ، ويكون هو منبعًا لرحمتها فاشتراكهما في هذه الرَّحْمة الوالديَّة التي لها مصدرٌ واحدٌ وموردٌ واحدٌ يؤكِّدُ الصلةَ بينهما فبينا هما معتصمان بحبل الزوجية الذي هو من أقوىٰ الروابط الحيوية إذا هما معتصمان بحبل الوالدية الذي هو أقواها علىٰ الإطلاق، وكيف لا يكون كذلك ورابطة الزوجية هي طاقة من طاقات حبل الوالدية إذ الوالدان هما الزوجان قد أنتجا فكملت حيويتهما وجاءت بثمرتها.

كلُّ واحدٍ من الوالدين يشعُر من حيثُ هو والدٌ بما يشعُر به الآخر ويملِكُه الوجدان الذي يملِك الآخر وتتولَّد فيه الآمالُ التي تتولَّد في الآخر، ويكون جِدُّه وسعيُه لمثل ما يجدُّ ويسعىٰ له الآخر، ويرىٰ سعادَتَه عين سعادَةِ الآخر، أرأيت هذا الاتحاد في هذه الشُّؤُون كلِّها إذا صافح اتِّحادَ الزوجيَّةِ وعانَقَه كيف يكُون حال المُتَّحدين في ترُاحِمهما وتعاطُفِهما؟ بل في تمازُجِهما وفَناء كلٍّ منهما في الآخر؟ لو كانتِ المسألة نظريَّةً محضةً لحكم الناظر فيها - مع سلامة الفطرة - بأن الحياةَ الوالِديَّةَ هي كمالُ الحياة الزوجية، وأنَّ هذا الكمال هو الذي ليس بعدَه كمال، فالوالدان هما أسعدُ الناس بنفسِهما وولدِهِمَا لا

يُتصوَّرُ أن يقوَىٰ الزمان علىٰ شتِّ شمِلهما، أو نكثِ فَتْلِهما، وإن اتحادهما هذا لأكبر عونٍ لهما علىٰ أحداثِ الزمان، وأفعال الطبيعَةِ في الإنسَان.

ما كان لسليم الفِطرة الذي يعيشُ بمعزل عن فاسدي الأخلاق مُعتلِّ الطباع أن يَتخيَّل وقُوعَ نزاعٍ يتمادىٰ بين الزوجين الوالدين، بَلْه المغاضبة التي تفضي إلىٰ المباغضة والمناصبة والمناهضة، علىٰ نحو ما يكونُ بين أصحابِ التراث الموروثة، والأضغان المخبوءة، كما يقع الآن علىٰ مرأىٰ منَّا ومَسمَع، وألمعنا إليه من قبل.

لكنَّ الفسادَ قد بلغ من هذه الأمة مَبلغًا لا يُصدِّقُه عاقِل، ولا يَتخيَّلُه فاضلٌ إلا أن يرىٰ بعينه، ويسمعَ بأذنه، وقد أحصىٰ الأستاذ الإمام - عليه الرَّحْمة - قضايا سنةٍ في إحدىٰ المحاكم الأهلية فبان له أن (٧٥) قضيةً منها كانت بين الأقربين، فما بالك بقضايا المحاكم الشرعية، ولعل (٩٩) منها في المئة بين الأزواج والوالدين.

سبق القولُ بأن الحياة الزوجية هي أصلُ الحياةِ الوطنيَّة والحياة المِليَّة؛ فإذا كانت الأولىٰ سعيدةً كان ذلك أصلًا في سعادةِ الأُمَّة، وإذا كانت شقيَّةً كان ذلك علَّةً لشقاء الأمة؛ لأنَّ الأُمَّةَ مؤلفةٌ من هذه البيوت، فمن لا خيرَ فيه لأهله لا خير فيه لأُمَّتِه، كما علمت من حديث: «خيركم خيركم لأهله»، فما دامت حياتُنا الزوجية مختلفة مُعتلَّةً فلا يُرجىٰ لنا أن نحيا حياةً مِليَّةً طيبة.

وإنَّ هذا الشقاء في الأُمَّة والبيوت هو في المسلمين أثرٌ من آثار تركِ عقائِدِهم وآدابهم الدينيَّة، وتقطيعِ روابط المِليَّة، فخسارتهم لسعادَة الدنيا دليلٌ على أنَّهم إن لم يعودوا ويتوبوا سيخسَرُون سعادةَ الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

نقفُ عندَ هذا الحد في بيانِ أركان الزوجية الثلاثة التي نطقت بها الآية الكريمة في السورة التي ورد فيها أن الدِّينَ القيِّمَ هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فقد شرحناها بما أملته علينا الفطرةُ، وهدتنا إليه الفكرةُ، إذ هي التي أرشدتنا إلى ذلك بخاتمها (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الروم: ٢١) .



الفهرس